على مرمى حجر

الكتاب : على مرمى حجر

الكاتب : ميلود عرنيبة

تصميم الغلاف : محمد محسن

تنسيق داخلي : يوسف الفرماوي

مراجعة لغوية : ميلود عرنيبة

الطبعة : الأولى٢٠٢٠

رقم الإيداع: 2019/16485

الترقيم الدولي :978-977-6727-45-8

الناشر : السعيد للنشر والتوزيع

المدير العام : لمياء السعيد

برج الهادي – الدور الأول - 36 ش عبد الحميد الديب – شبرا مصر

0222017260 – 01550096215

elsaidpublisher@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر

على مرمى حجر

أدب رحلات

تأليف

ميلود عرنيبة

السّعيد
للنشر والتوزيع

إهداء

إلى كل عربي ومسلم
يكتوي مثلي بنار بين الضلوع تتأجج وتثلم
أسفا على واقع أمة
كانت يوما ما
في القمة
وأضحت اليوم أضحوكة بين الأمم.
هات يدك يا أخي! فرغم هذا السأم
فإننا لم نمت بعد،
والليل مهما طال انصرم
وجرحنا مهما غار
داويناه بالأمل، فاندمل والتأم!

«السـفر سـفران: سـفر بظاهـر البـدن عـن المسـتقر والوطـن إلى الصحـاري والفلـوات، وسـفر بسـير القلـب عـن أسـفل السـافلين إلى ملكـوت السـماوات».

الغزالي: إحياء علوم الدين، ص. 712.

«المؤمـن في سـفر دائـم .. والوجـود كلـه سـفر في سـفر.. ألا يعلـم مـن تـرك السـفر سـكَن، ومـن سـكَنْ .. عـاد إلى العـدم!»

محمد حسن علوان: موت صغير (على لسان ابن عربي).

1- الرحلة الكبرى

ما الحياة إلا رحلة وسفر؛ مراحل العمر محطاتها، والعمل الصالح زادها، والمحبة دليلها. بدايتها الولادة، والموت نهايتها، نسترشد فيها بخرائط الروح، وبوصلات الآمال، ونمتطي لها قطارات المطامح، ومراكب المنادح، يتعاقب فينا الجديدان يبليان؛ ليل يسترنا ببرقع ديجوره، فيخلفه نهار يخلع علينا ثياب نوره، تُطوى مراحل عمرنا تترا، كطي السجل للكتاب، ولا يبقى منها إلا ما خُط تحت صريف الأقلام وصرير الكلام، بحبر الأرواح على صفحات الطروس والألواح. ثم تبدأ الرحلة الثانية؛ رحلة العالم الأخروي، رحلة جني الحصائد، وقطف الفوائد، واستخلاص العوائد.

فلا تمتطي لسفرك قطار الملاهي، ولا تسافر سفر الغافل اللاهي، ولا سفر الذي جمحت به خيل الأوهام، في صحراء الألغام، وتاهت به مراكب الشهوات، في بحار الظلمات، ولكن سافر ومعك تساؤلاتك وافتراضاتك وشكوكك، وليكن سلاحك صلاح سريرتك، وذاكرتك تكّتك وجرابك، فلا تعلق أو تحمل فيها إلا ما قل حمله وكثر نفعه، وخلص معدنه وغلا ثمنه. لا تهتم لتوافه الأشياء، ولا تستعيض عن الزخات بالأنداء، إياك أن يلهيك زبد البحر عن مكنوناته، وتذهيب رمله عن مصقول مجوهراته، ولا تقنع بالسفوح بديلا عن القمم، ولا تثنيك صلابة القشر عن طلب اللب بكبير الهمم.

وسل الذي له من قبل ومن بعد الأمر، أن يفتح عليك بما فتح به على أهل البصائر والعبر، ويسلمك راضيا لمجاري القدر، ويوفقك لصيد بوارق الفكر، ويوجهك إلى مكامن الدرر، ويجنبك مزايغ البصر، ويحملك على دروب خير البشر، ويقتفي بك على نهجه الأثر، ويسقيك

يـوم اللقـاء مـن الكوثـر، ويمتعـك بجميـل النظـر.

السـفر بحـر فخضـه بمراكـب التدقيـق، ومجاذيـف التحديـق. ولا بـد لـك مـن أنيـس ورفيـق، يبـدد عنـك وحشـة الطريـق، وليكـن رقيـق الطبـع والحـال، صبـورا ذا احتـمال، طيـب المعـشر وحسـن المقـال، فالسـفر اختبـار لمعـادن الرجـال، وكشـف لخفايـا الأنـذال. وأحسـن اختيـار مراسـيك، وليكـن قلمـك هـو الترجـمان، وصيـدك للجواهـر هـو منتهـى النشـدان، فالـدرر هـي التـي تهيـج بحـر الـكلام، وتغيـم سـماء الإلهـام، فتسـيل أرض الكتابـة بالعبـارات، تخصّبهـا الأنـوار والإشـارات، فتنبـت بهـا أجمـل الأزهـار والـوردات، ثـم يضـوع عبيرهـا فواحـا يسـتهوي الأنـوف، وينفـض الغبـار عـن الرفـوف. فالصـدر يبـوح بمـا جمعـه، وكل إنـاء يفيـض بمـا أودعـه.

ارقـص، ارقـص أيهـا القلـم كرقصـة صـوفي في حـضرة البلـوغ، واغـرف مـن أحـوال الذاكـرة مـا دامـت عـذراء، واقـذف بمـدادك في رحـم هـذه الصحائـف، وإن الصحائـف لأرحـام شـكورة. ثـم دع الجنـين يتخلـق عـلى مهـل، وفـق سـنن القـدر. لا تسـتعجله فيخـرج خديجـا، ودعـه يكمـل عدته، فـإذا مـا خـرج واكتمـل فضـع نقطـة النهايـة زغـرودة، فرحـا بقـدوم الوليـد الجديـد وحمـدا للمنعـم المجيـد.

واختـم بحمـد اللـه حمـدا يـتردد أنفـاس الصـدور، عـلى مـر الأزمـان والعصـور؛ قـل لـك الحمـد يـا مانـح الأعـلاق، وفاتـح الأغـلاق، يـا مسـتحق الحمـد بـلا انـصرام، وموجـب الشـكر بأقـصى مـا يـرام.

2- أحقا الأشجار لا تسافر؟

«سافر فالأشجار وحدها لا تسافر»،

هكـذا يقـول المثـل، أو هكـذا خُيّـل إلي أنـه مثـل؛ بـل لعلـه عنـوان كتـاب أدبي، ولكـن الـشيء المؤكـد عنـدي هـو أن هـذه العبـارة ليسـت مـن بنـات أفـكاري، فهـي بنـوع مـن التعديـل، يتـم تداولهـا اليـوم بشـكل كبـير في مواقـع التواصـل الاجتماعـي. ليـس مهـما في هـذا المقـام أن أبحـث عـن مصدرهـا، فلسـت هنـا بصـدد إعـداد بحـث علمـي أخـاف مـن المسـاءلة عنـد مناقشـته عـن مصـدر هـذه المعلومـة، أو حتـى أننـي سـوف أُتهـم بالسرقـة العلميـة، هـذه السرقـة التـي انتـشرت انتشـار النـار في الهشـيم، في زمـن الـكل فيـه يـسرق، يـسرق المسـؤول، ويـسرق الرئيـس والمـرؤوس، ويـسرق الـوالي، ويـسرق الصغـير، ويـسرق الكبـير، فكيـف نحاسـب الكاتـب وحـده. أرجـو ألا يُفهـم مـن كلامـي أننـي مـع السرقـة الأدبيـة والفكريـة، كلا وحاشـا! بـل هـي عنـدي سرقـة ثابتـة. ولكننـي أوضـح هنـا السـياق العـام الـذي انتـشرت فيـه السرقـة. أعتـذر منـك أيهـا القـارئ الكريـم، مـا كان لي أن أبـدأ بتعكـير مزاجـك، وأنـت الـذي حقـك عـلي أن أكتـب لـك مـا يمتعـك ويـسرك، ولكننـي لا أتقـن النفـاق، لم أعـد أرى في هـذا الزمـان إلا مـا يـؤلم، فلتغفـر لي صراحتـي.

أعـود الآن إلى العبـارة وأتسـاءل: أحقـا الأشـجار لا تسـافر؟ ألا تتحـرك؟ أليـس السـفر حركـة، والحركـة سر الوجـود ومبـدأه وامتـداده؟ ف»لـو سـكن لعـاد إلى أصلـه وهـو العـدم، فـلا يـزال السـفر أبـدا في العـالم العلـوي والسـفلي، وسـياحة الكواكـب في الأفـلاك أسـفارها»، كـما قـال ابـن عـربي. أليسـت الأشـجار هـي الأخـرى تسـافر إذن؟ ألا تتتنـاوب عليهـا ريـاح الشـمال والجنـوب، والـشرق والغـرب، تنقلهـا مـن طقـس بـارد إلى آخـر

حـار؟ ألا تظللهـا فصـول أربعـة عـلى امتـداد السـنة، وكثـير منهـا يسـتبدل أوراقـه، أليـس هـذا سـفرا؟ أليـس الـكل في حركـة؛ في سـفر؟ السـفر، إذن، مـرادف للحركـة التـي هـي سر الوجـود. والسـفر، كـما يسـتخلص كيليطـو في أحـد كتبـه، خـروج مـن عـالم الألفـة إلى عـالم آخـر غريـب، وهـذا العـالم الغريـب يولّـد أحداثـا قابلـة لأن تُحـكى وتوصـف، ويوفـر معرفـة ومـادة قابلـة لأن تتحـول إلى حكايـة، وإلى سرد تختلـط فيـه المشـاعر بالأشـياء المشـاهدة والموصوفـة، تتصـل فيـه الـروح أحيانـا وتنفصـل أخـرى.

كيـف أصبـح السـندباد البحـري لألـف ليلـة وليلـة مشـهورا؟ لـولا أنـه سـافر وغامـر. ومـا الـذي ميّـز القصـص القـرآني غـير ثيمـة السـفر، ففـي أغلبهـا رحلـة وسـفر: قصـة إبراهيـم وسـفره إلى الحجـاز؛ قصـة مـوسى وخروجـه ببنـي إسرائـل؛ قصتـه وسـفره إلى مجمـع البحريـن حيـث التقـى الخـضر وشـاهد منـه مـا شـاهد مـن العجائـب والغرائـب؛ قصـة سـليمان وقيـادة جنـده في واد النمـل، قصـة يوسـف وإخوتـه والرحلـة مـن كنعـان إلى مـصر؛ قصـة يونـس وخوضـه غـمار البحـر وبطـن الحـوت، قصـة محمـد صـلى اللـه عليـه وسـلم وهجرتـه رفقـة صاحبـه أبي بكـر. فـأروع الحكايـا تتولـد عـن الارتحـال، تقـول سـيدة الحكايـة شـهرزاد في إحـدى الليـالي: «إن حكايـة الرحـلات هـذه هـي الأكـثر إثـارة، والأكـثر إمتاعـا مـن كل الحكايـات التـي قصصتهـا». كان عـلى شـهرزاد أن تتحـول هنـا إلى ناقـدة، تقـوّم الحكايـات وتحكـم عـلى جيدهـا وأجودهـا. «شـهرزاد الراويـة» هـي التـي اسـتأثرت بأكـبر قـدر مـن القـراءات، أمـا «شـهرزاد الناقـدة» فلـم يهتمـوا بها بعـد، وربمـا تكـون موضـوع بحـث قيّـم. وقـد عمـل هـذا الحكـم النقـدي عملـه في شـهريار الـذي تولـدت لديـه رغبـة ملحـة في سـماع هـذا النـوع مـن الحكايـات، فقـال لهـا ذات ليلـة: «كي تنتهـي مـن قضـاء هـذه الليلـة أسرعـي في قـص حكايـة تتعلـق بالأسـفار». لا شـك أنـه كان يتذكـر جيـدا سـفره رفقـة أخيـه، ومـا شـاهداه مـن عجيـب أمـر الصبيـة والعفريـت.

ولكن السفر أيضا لا يخلو من ألم، ألم أشد مضاضة أحيانا كما وقع له عندما عاد واكتشف العبد الأسود الدنيء يتنعّم في فراشه في أحضان الملكة السيدة.

مرة أخرى أعتذر لك قارئي الكريم، فأنا لا أستطيع أن أكتب متفائلا في زمن الخيبات والآلام، بل إنني لست كاتبا بالمرة؛ كما أنني لست السندباد ولا شهرزاد، ولا كاتب رحلة، ولا مبدعا، لأنني أقدّر هذا اللقب كثيرا لقب «المبدع»، وأعتقد أنني لا أستحقه بالمرة، هذا اللقب الذي أصبح كل من هب ودب يتسربل بسربالة لا سيما في الفضاء الأزرق، هذا الفضاء الذي من سيئاته أن أتاح لكل معتوه ومخرّف ودجال أن يصنع من نفسه بطلا ومبدعا وفقيها و.. و.. يستوي في ذلك النساء والرجال؛ تقرأ على صفحاتهم: الكاتب الكبير، والشاعر الفحل، والمفكر العظيم، والفنان المبدع،...وهلم جرا من الألقاب والأسماء تترا. ألقاب لا يمتون لها بصلة؛ بل هناك أشخاص يكتبون في كل يوم قصيدة، وفي كل أسبوع ديوانا، وفي كل شهر كتابا أو كتابين، إنهم أشبه بالدجاج الذي يبيض. تصدق في زرقة هذا العالم أحيانا كثيرة الدلالة الشعبية للون الأزرق في بلاد المغرب، فالزرقة عندنا عنوان الفراغ الفكري والغباء والكسل، يقولون عندنا «هذا الولد أزر گ، بالكاف المعقودة» دليل قلة ذكائه، ويقولون «أزر گ من بوطة»، بمعنى أزرق من قنينة الغاز، وهي عبارة تنطوي على المعنى نفسه. أعتذر منك أيها القارئ الكريم على هذا الاستطراد مرة أخرى، أكرر لك، احتراما لك، أنني لست مبدعا، ولكني وجدتني، بعد عودتي من أول رحلة طويلة خارج بلادي، تستحوذ علي رغبة جامحة في تدوين بعض تفاصيل رحلتي، قبل وأثناء وبعد. حتى لا تنفلت مني اللحظة، فالكتابة تبقى الشاهد الوحيد على ما حدث لنا، الشاهد الذي لا يغير ولا يبدل من شهادته شيئا. وما لا يُكتب فكأنما لم يحدث، ولا يعول عليه. ولقد ترددت كثيرا في إخراج

هـذا المكتـوب احترامـا لـك أيهـا القـارئ، فـإن وجـدت مـا لم يرقـك فلتغفـر لي، بـارك اللـه فيـك.

.

3- على أهبة الاستعداد

كانت فرحتي كبيرة لا يسعها وصف عندما تلقيت خبر قبول بحثي في أشغال المؤتمر الدولي المحكم الثاني «اللغة والأدب والترجمة» بجامعة الطفيلة بالأردن من 02 إلى 04 أبريل 2019. لم يبق أمامنا سوى البحث عن مؤتمرات وملتقيات في الخارج بعدما تحولت بعض مؤتمراتنا وملتقياتنا الداخلية إلى أعراس لا يُدعى لها إلا ذوو القربى، وأصحاب الألقاب والأسماء الوازنة، ظاهرة برزت مؤخرا في الوسط الأكاديمي المغربي لا تبشر بخير، بتنا لا نسمع شيئا عن المؤتمرات والندوات إلا عشية نشر البرنامج المفصل لها، كل صاحب ندوة يختار ضيوفه حسب رغبته ولاعتبارات لا يعلمها إلا هو ومن معه، وصرنا نعيش برجوازية ثقافية تهيمن على كل شيء، أسماء تجدها في كل الملتقيات والأنشطة، لا يهمها في الغالب غير الصور التي تنشرها على حسابات الفيس، والشهادات التي تحصل عليها، أما البحث العلمي ففي خبر كان، تجلس إلى أحدهم فلا تكاد تظفر منه بشيء ذي بال؛ بل منهم من لازال يردد ما تناوله منذ عقود، لا يبرحه قيد أنملة. دفع هذا الوضع بعض الغيورين من المثقفين الحقيقيين إلى مقاطعة مثل هذه التظاهرات.

شرعت في الاستعداد وأنا مغتبط بسفري الأول خارج المغرب، تشعرني كلمة «خارج» بالأسف على أمة تفرقت، أو أريد لها أن تتفرق، إلى دويلات تجتهد في رص الحدود بينها أكثر من سعيها إلى تمتين روابط الوصل والتواصل، وكل دويلة تتفرق هي الأخرى شيعا وجماعات وفرقا متناحرة في كثير من الأحيان.

ها أنت أيها البدوي تقلب بين يديك الجواز وتتأمله أول مرة بين أناملك، ما كنت لتحلم بسفر خارج المغرب وأنت الذي قضى طفولته في قرية صغيرة لم يبرحها إلا في حدود السوق الأسبوعي الذي كان يُقام على بعد ست كيلومترات. بينما كان أول سفرك إلى مراكش من أجل الدراسة الجامعية، أغمضت عينيك فأخذتك سكرة التذكر، تذكر يوم «خروجك الأول» كما سميته في إحدى قصصك، من بلدتك التي دفنت فيها مشاهد طفولتك، تلك المسرحية الدرامية التي كنت بطلها. فبعد حصولك على شهادة الباكالوريا كانت وجهتك إلى مراكش من أجل متابعة الدراسة الجامعية. تذكرت ذلك اليوم الذي حملت فيه أمتعتك وتوجهت إلى المحطة الطرقية بآسفي. وضعت الأمتعة على الرصيف وتوجهت إلى بائع التذاكر تساومه على ثمن تذكرة السفر إلى مراكش. فعلت ذلك محاولا إثبات رجولتك ومقتديا بوالدك الذي كنت ترافقه إلى السوق الأسبوعي، حيث كان يُتقن المساومة وينجح فيها نجاحا باهرا، فكم من مرة اشتريتما البضاعة بنصف ثمن السومة الأولى، كنت تحسّ حرجا كبيرا وأنت تسمعه يقترح على البائع نصف الثمن أو أقل، لكن سرعان ما تتفاجأ بموافقة البائع على الثمن فتشتمه بداخلك وتكتشف أن خبثه يفوق شطارة والدك. تتقدم نحو الرجل الضخم وفي أذنك يتردد صوت والديك: إياك... وإياك... كن.... وكن... ولا تكن... وصايا حفظتها عن ظهر قلب كملاكم يتلقى آخر تعليمات مدربه قبل دخول الحلبة.

- السلام عليكم

- وعليكم السلام ، فين؟ مراكش نْشا الله؟ (إلى أين؟ إلى مراكش إن شاء الله؟)

- إن شاء الله، كم ثمن التذكرة؟

- سبعميات ريال بشْ قطعنا للناس، الكار خارج دابا. (خمسة

وثلاثـون درهـما هـو الثمـن الـذي أخذنـاه مـن عنـد العمـوم، والحافلـة سـتخرج للتـو).

- غـير سـتمية رْيـال، راني غـير طالـب. (يكفـي ثلاثـون درهـما، فأنـا لسـت سـوى طالـب فقـير).

يحـدق فيـك بعينـين غائرتـين، وينتشـف سـيجارته بـين شـفتيه الشـاحبتين بعمـق ثـم ينفـث دخانهـا جهتـك غـير مبـال بـك، شرع يقـترب منـك محدقـا، بينـما ازداد خفـق قلبـك، مـد يـده إلى رأسـك فالتقـط منـه شـعرة طويلـة علِقـت بـه بعدمـا رجّلتـه بالمشـط الـذي علـق بـه شـعر أختـك، تأملهـا وتابـع طولهـا ببـصره، ثـم ضحـك بسـخرية والتفـت إليـك فقـال:

- أيهـا الشـاطر، بيْـت مْقـصّر، وأنـا كنْشـطّرْ مْعـاي عـلى خمسـة دراهـم؟ (أيهـا الشـاطر تبيـت في ليلـة حمـراء، وتبخـل عـلي في سـومة التذكـرة بخمسـة دراهـم؟)

تـركك وولّى متجهـا نحـو رجـل كان دخـل مـن بـاب المحطـة للتـو. أحسسـت بالـدم يـكاد يتطايـر مـن وجهـك مـن شـدة حيائـك، وأنـت الـذي كنـت تـتردد مئـات المـرات قبـل أن تكلـم امـرأة، فكيـف يظـن بـك هـذا الرجـل الظنـون؟ ومـا كان منـك إلا أن مـددت يـدك إلى جيبـك وسـلمته الثمـن كامـلا دون أن تنبـس ببنـت شـفة.

كان أول إجراء ينبغي علي القيام به هو الحصول على تأشيرة الدخول إلى الأردن، هذه الوثيقة التي تلغي كل شعارات الأخوة الزائفة التي يتشدق بها المسؤولون العرب، ولا تعترف إلا بأخوة مؤقتة سرعان ما تنقضي، وتردّ كل المزاعم والأكاذيب عن وحدة الإنسان والمصير التي يتغنى بها قادة العالم، كانت أول سبب اختلقته أوروبا لطرد عدد مهم من السواعد التي بنتها بعد أن استغنت عنهم. علي أن أسافر لمسافة تقارب 500 كيلومتر من مدينة الصويرة إلى الرباط، سفر طويل قبل السفر.

4- من الصويرة إلى الرباط

يستغرق السفر من الصويرة إلى الرباط أزيد من خمس ساعات، والصويرة مدينة هادئة على ساحل المحيط الأطلسي، إذا نظرت إليها على الخريطة بدت لك كقطرة صباغة سقطت سهوا من يد فنان على اللوحة، فوقعت في نفسه موقعا حسنا فاحتفظ بها فكانت مركز جذب في اللوحة. ساكنة على امتداد السنة، بحيث إذا عسعس ليلها، صمت أهلها ونطقت أمواج شاطئها الجميل المتكسرة على رمالها الذهبية، وحده هدير البحر يكسر رتابة صمت المدينة ليلا. هذه هي مدينة الصويرة، كل سكانها مسالمون، نساء مدينتها القديمة ما زلن يحافظن على اللباس المغربي التقليدي المعروف بـ»الحيك والنقاب»، ولكن في السنوات الأخيرة غزتها «الموضة» كما غزت كل مدن المغرب. مدينة كثير من سكانها فقراء، تفتقد المعامل والشركات والمشاريع الضخمة التي قد توفّر فرص شغل للساكنة، تقتات على السياحة بكل أشكالها، وعلى رأسها اكتراء البيوت، فقبل أن تتوقف الحافلة القادمة من الخارج على أرصفة المحطة، ويسترجع سائقها أنفاسه، تباغتها أفواج من الرجال والنساء، حاملين مفاتيح في أيديهم، يقترحون على الزائرين شققا وبيوتا للكراء، وفي أغلب الأحيان يكون هؤلاء سماسرة فقط. تتفاجأ إذا كنت منفردا أو معك شباب عندما تبادرك إحدى النساء المنقبات بعينين مغويتين، وهن قليلات طبعا، بالسؤال:»تريد شقة، أو بيتا؟ عندي الفارغ والعامر، وكل ما تريد»، ربما تتساءل إذا كنت زائرا لأول مرة: ماذا تقصدين بالفارغ والعامر؟ حينها تسمع الجواب الذي يكشف لك أن النقاب أصبح عند بعضهن زيا للتخفي ليس إلا. وإذا

كنت مع عائلتك سمعت من الكلام ما يرضيك، فيوقفك ويستهويك: «مرحبا عندي بيوت عائلية ومحترمة». والحق يقال هناك بيوت كثيرة يحرص أصحابها على العفة والاحترام، فلا يكترونها إلا بعد التأكد من الهوية.

تنشط الحركة التجارية بالصويرة في ثلاث مناسبات ليس إلا: أولاها الصيف إذا كان حارا، ونادرا ما يكون كذلك لأن المدينة باردة على امتداد السنة وتزورها على الدوام رياح قوية وقارسة يسمونها «الشرقي»، لكن إذا هدأت الرياح وسخن الجو تقاطرت على المدينة أفواج الزائرين ولا سيما من مدينة مراكش وما جاورها، فتكتظ الشوارع، وترتفع سومة الكراء ارتفاعا قياسيا، عندها ينتعش سكانها ويفرحون. والمناسبة الثانية هي مهرجان كناوة. في هذه المناسبة، وللأسف، يكثر الأجانب في المدينة، وبعض البيوت التي كانت طيلة السنة معابد ومحاريب لساكنيها من الرجال والنساء تفقد عذريتها، وتهتك حجبها. تجتمع الأسرتان والثلاث في بيت واحد وتكتري باقي البيوت لطالبي المتعة الحلال والحرام على حد سواء.

وإذا عرجت على الشارع، لا تكاد تصدق أنك في الصويرة المدينة الخجولة؛ نساء غريبات عن الصويرة من أعمار مختلفة من بنات العشر إلى بنات الأربعين فما فوق، كثير منهن أجنبيات، قد كشفن عن مفاتنهن بشكل فاضح، كأن الأمر يتعلق باستعراض نسوي، فرادى وزرافات. وإذا نظرت في وجه إحداهن لا تزيح نظرها عنك، قد تبادرك بالابتسام والإغراء. مشهد يهتك ستر الحياء؛ أزواج من الذكور والإناث في أوضاع مستهجنة ومخلة بالحياء. يرتدي أغلب هؤلاء سراويل ممزقة تكشف ما ينبغي ستره، ذكور أطلقوا شعورهم ولحاهم، وإناث قطعن شعورهن تقطيعا مبالغا فيه، والكل يمشي في دلال حتى لا تكاد تميز ذكورهم من إناثهم.

وعندما يحل الليل في مناسبة مهرجان كناوة، تبيت الصويرة على غليان لا نظير له، يتكدس الناس في هرج ومرج أمام منصات الفرق الكناوية، حيث لا تراعى حرمة، ولا يصان عرض، تتقارب الأنفاس، وتتحدث العيون والألسنة بلغة الغزل الإباحي، والجميع يرقصون، في هستريا لا توصف. ويستمر السمر إلى وقت متأخر من الليل، ثم تتفرق الجموع لتكمل فصول السهرة،؛ الميسورون يكملونها في االفنادق الفاخرة وغير الفاخرة، ودونهم في البيوت المكتراة بأثمنة خيالية، وأما الذين لا يملكون سومة الكراء فإنهم يكملون سهراتهم على رمال الشاطئ وأرصفة الشوارع آمنين مطمئنين.

والمناسبة الثالثة هي موسم الشرفاء ركراركة (بالكاف المعقودة گ)، وهو موسم يستمر مدة أربعين يوما، يطوف فيها الشرفاء أماكن محددة في منطقة الشياظمة، وهي محل وجود زوايا يرقد في توابيتها رجال- رحمهم الله-، تقول الرواية الشعبية أنهم كانوا أولياء صالحين. موسم دأب الشرفاء على إحيائه في فصل الربيع من كل سنة، عادة ألفها الركراكيون منذ فجر الإسلام كما تقول الرواية الشفوية وكما في كتاب «السيف المسلول»، إذ يؤمنون بأن أجدادهم سافروا إلى الحجاز، والتقوا الرسول محمدا صلى الله عليه وسلم، وحمّلهم رسالة نشر الإسلام في بلاد المغرب الأقصى، وقد كانوا سبعة رجال، بنوا عددا من الزوايا عند عودتهم إلى الشياظمة، كانوا يلقنون فيها القرآن والعلم.

تقول الرواية المتداولة، التي ليس لها سند مثبت سوى تواترها عبر التاريخ: كان الرجال السبعة يخشون ارتداد سكان الشياظمة عن اعتناق الدين الحنيف، فيقومون كل سنة بجولة تسمى «الدور» لتفقد وضعية انتشار الإسلام واستمراره بتلك المناطق، وهو العرف الذي تحول إلى ما هو عليه اليوم. إذ ينتقل الشرفاء وسط جمع غفير يضم «المقدم» أو «مول العودة» (صاحب الفرس) أو «العروسة» كما يلقبونه،

وتتقدمه ناقة تحمل الخيمة «المقدسة». يطوفون الزوايا فتقام فيها الأسواق، وتنشط فيها ألعاب الأطفال من ناعورات وسركات، وركوب للدراجات، والألعاب البهلوانية، وتقام مسابقات الفروسية التي غالبا ما تكون مصحوبة بغناء «الشيخات» والفرق الموسيقية الشعبية. ويكثر العرافون وقراء الطوالع والدجالون. ينزل الشرفاء في كل زاوية فيبنون الخيمة، وتأتيهم الأطعمة المتنوعة وعلى رأسها «الطاجين الشيظمي»، وهو أكلة لذيذة بطعم زيت الزيتون الشيظمي الذي يعرف بجودته على الصعيد الوطني، طعم لن تتذوق مثله إلا في بيوت الشياظمة الكرماء. وفي نهاية اللقاء تبدأ ما يسمى بـ»الزيارة» (حصة الدعاء)، يعطي أصحاب الحاجات والأحزان والكروب أموالا للشرفاء طالبين منهم الدعاء لهم أو الدعاء على أعدائهم، واعدين بالنذور الكبيرة إن هم تحققت أحلامهم وأمنياتهم المؤجلة، وكلما كانت القيمة المالية للزيارة مرتفعة كلما أطال الداعي في مدة الدعاء ونوّع من صيغه، وسارع إلى قراءة « إِلا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا «(جزء آية من سورة يوسف) مرددا كلمة قَضَاهَا ثلاث مرات، ولا يكتفي الشرفاء بالدعاء، ولكنهم يفرقون قطع السكر والملح على المريدين بعدما ينفثون فيها بداعي البركة.

يترك الشرفاء بيوتهم وينطلقون في رحلة سياحية طقوسية تجوب الشياظمة لمدة أربعين يوما تقريبا، وعلى طول الرحلة ينزلون في الدواوير والزوايا، يأكلون ويشربون ويأخذون الأموال مقابل دعوات يقولون إنها مستجابة لا محالة، ويحكي بعض ممن شارك في الرحلة بأن الرجال والنساء يستقبلونهم استقبال الأولياء، يقدمون لهم الهدايا والنذور، ويلحّون عليهم بالنزول في مساكنهم، ويقدمون لهم الأضحيات، ولا يدّخرون جهدا في إكرام ضيافتهم طمعا في بركاتهم، وخوفا من «شوكاتهم» التي تُتناقل عنها أنباء شهرتها سائرة، وأخبارها باهرة، إذ

تتداول الألسنة أن رجلا في دوار اسمه كذا أساء التعامل معهم فأصابته لعنة الفقر، وحلت به المصائب، وآخر لم يدُر عليه الحول حتى مات، بينما آخر لم يكن يملك شيئا، فلما دعوا له حال عليه الحول وهو من أغنى الأغنياء، وتحاك قصص كثير بهذا الشأن أشبه ما تكون بخوارق ألف ليلة وليلة، جرّت على هؤلاء الشرفاء انتقادات لاذعة من قبل حرّاس الكولونيلة.

يشكل الدور مناسبة يتزاور فيها أهل الشياظمة، ويشترون فيها الهدايا لبعضهم والملابس واللعب لأطفالهم، والكل في سرور وحبور. وعندما يصل الدور إلى الصويرة -المدينة-، تنشط الحركة التجارية، ويكثر المتجولون الذين يسألون الناس «الزيارة»، يستوقفون المارة ويدقون الأبواب؛ خبراء في معرفة هواجس النفوس؛ هذه فتاة في عمر الزواج يدعون لها بفارس أحلام جميل، وهذا شاب عاطل يتمنون له الحصول على شغل وأجر كبير، وهذا تاجر يدعون له بالبركة والتيسير، وهذا صاحب محل يرشونه بماء يجلب له الزبناء...يحملون أعوادا يضربون بها أكتاف الناس للشفاء من الأمراض، ويوزعون عليهم بعض السكر والملح والحلوى بداعي البركة. يأتي القرويون إلى المدينة ويكثر الناس والزحام.

يختتم الدور في سوق «حد الدرا»، هناك حيث يأتي الزوار من كل حدب وصوب، وتتحول المنطقة إلى موسم حج غفير، يعتقد الناس أن في هذه المحطة الختامية تُقضى الحاجات الكبرى. ويتداولون حكايات خارقة عما يحدث هناك، يقولون مثلا: إن الخيمة في نهاية الدور تسقط وحدها من دون تدخل أحد، وأنه في الغالب ما يتبع نهاية الدور سقوط أمطار خفيفة.

في السنوات الأخيرة تطور الدور بشكل كبير واجتهدت بعض البلديات في تحويله إلى مهرجان ثقافي. فحاد عن قصده الأول الدعوي،

وأصبح فيه كل شيء إلا ما يتعلق بالدعوة والدين.

هذه هي المناسبات الثلاثة التي تنشط فيها الحركة بالصويرة، أما هذه الليلة فكانت في سكونها الملائكي، وهدير البحر يناجي لمعان النجوم، والنسيم العليل يداعب النفوس، ما أجمل الصويرة عندما تكون هادئة على حافة المحيط كحورية غافية.

في هذه المدينة قضيت سنتين من الدراسة بمركز تكوين المعلمين والمعلمات، كنت أعيش كطائر حر تخلص من قضبان القفص، أحلق حيث أشاء وقتما أشاء، هناك بعيدا عن رقابة والدي التي طوقتني في صباي، أحب البحر وأعشقه، وكم مرة تركت حصة دراسية وانهزمت أمام إغراء البحر فلم أستطع مقاومته، فزهدت في الدرس وذهبت أناجيه. لبحر الصويرة سحر لا يقاوم، أوحت إلي أيام الشباب بالكتابة عنه، كم مرة وقفت أمامه وناجيته، كنت أظنني واهما ومبالغا في التأثر بالبحر، ولكن اكتشفت فيما بعد أنه أسر الأدباء والشعراء، ومن جميل ما قال أحدهم:

أَنتَ يا بَحرُ أَسيرٌ آهِ ما أَعظَمَ أَسرَك
أَنتَ مِثلي أَيُّها الجَبّارُ لا تَملِكُ أَمرَك
أَشبَهَت حالُكَ حالي وَحَكى عُذرِيَ عُذرَك
فَمَتى أَنجو مِنَ الأَسر وَتَنجو لَستُ أَدري

تركت الصويرة وتركت فيها كل هذه الذكريات، وانطلقت بنا الحافلة في منتصف الليل تمخر بنا عباب الظلام. تمر الحافلة عبر مجموعة من المحطات التي لي فيها ذكريات، أولها «سبت جزولة»، هذه البلدة التي لا تعرف النوم، الحياة فيها مستمرة أربعا وعشرين ساعة على أربع وعشرين، بلدة تجارية بامتياز، تتوقف بك الحافلة في المحطة حيث يطالعك دخان الشواء يتصاعد مخلفا سحبا كثيفة، ورائحة «لحم رأس الضأن» تزكم الأنوف، وتفتح الشهية لمن لا شهية

لـه. بلـدة أكـثر مـا يميزهـا ثلاثـة أمـور، الأول كـثرة المتسـولين مـن شـتى الأصنـاف، أطفـال ورجـال ونسـاء، وبمختلـف العاهـات، صمـم، وإعاقـة وعـرج...، يدعـون شـتى العيـوب، يتلـون أناشـيد تقطـع القلـوب، وتسـتدر الجيـوب، ويتقنـون تمثيـل الأدوار. يُقـال أنهـم يـؤتى بهـم مـن كل مدينـة مجـاورة كانـت عـلى موعـد مـع زيـارة ملـك البـلاد أو أحـد المسـؤولين الكبـار، يُحملـون في شـاحنات كالبهائـم، تصـل في الغالـب في الجـزء الأخـير مـن الليـل، تقذفهـم في الشـارع وتعـود أدرجاهـا، دون أن يسـتحضر أصحابهـا مراقبـة العزيـز الجبـار الـذي ينـزل إلى السـماء الدنيـا في تلـك السـاعة. هـؤلاء المتسـولون يعيشـون عـلى كـرم أصحـاب المقاهـي والدكاكـين لا ينقصهـم شيء، لكنهـم يتكاثـرون باسـتمرار، لأن نسـاءهم ولـودات سـواء منهـم أم مـن غيرهـم مـن بعـض (العقـلاء) الذيـن لا يتورّعـون. أسـماؤهم مشـهورة كنـت أحفظهـا عندمـا كنـت أشـتغل في إحـدى المقاهـي ليـلا خلال العطلـة الصيفيـة لتوفـير بعـض المـال للموسـم الـدراسي القـادم. أعـرف أسرة تشـتغل بانتظـام، تعمـل الأم وابنتهـا في النهـار، وفي المسـاء يجتمعـون بالابـن ويجـرون الحسـابات، وبينـما تعـود الأم والبنـت إلى البيـت يبـدأ الابـن عملـه ليـلا، وفي الصبـاح يجتمعـون مـن جديـد ويتبادلـون الأدوار عـلى التـوالي.

والأمـر الثـاني الـذي يميـز هـذه البلـدة النشـيطة اقتصاديـا أغـاني الطـرب الشـعبي التـي تنبعـث مـن دكاكـين بائعـي الأقـراص الغنائيـة عـبر مكـبرات الأصـوات التـي تمـلأ الأفـق: السـتاتي، وولـد الصوبـة، وولـد الحـوات، والداوديـة، وحجيـب وهلـم جـرا... يتنافـس البائعـون في الرفـع مـن صـوت المكـبرات، وفي إذاعـة أكـثر الأغـاني الشـعبية حداثـة وإثـارة، أصـوات مزعجـة يشـتكي منهـا بعـض الجـيران. والغريـب أن هـؤلاء الباعـة في الصبـاح الباكـر يذيعـون أقـراص القـراء المجوديـن وعـلى رأسـهم الشـيخ عبـد الباسـط بصوتـه النـدي، يجـوّد الآيـات القرآنيـة تجويـدا يشـفي النفـوس العليلـة، ويكشـف كـرب القلـوب المريضـة، ومـا إن ترتفـع الشـمس حتـى يتـوارى

الشيخ عبد الباسط وأمثاله تاركا مكانه لرواد الطرب الشعبي يصولون ويجولون، وكأن طلوع الشمس يؤذن باختفاء الملائكة، ويرفع الإيمان من القلوب.

أما الأمر الثالث، فهو الرائحة الكريهة التي تزكم الأنوف، وهي رائحة تنبعث من مستنقع الصرف الصحي، الذي يشكل بركة من الماء الآسن من جهة الطريق الأتي من مدينة آسفي، هذه البركة التي تشكل مرتعا للكلاب الضالة والبعوض الذي يشحذ خراطيمه عندما يشتد الحر، لا تكاد تخلو كل سنة من حدث مأساوي، وهي وصمة عار تسيء إلى هذه البلدة الطيبة، فكل المسؤولين الذين تناوبوا على تدبير شؤونها يعجزون عن إيجاد حل نهائي لهذه المعضلة. يحكي آباؤنا وأجدادنا أن المساحة التي تغمرها المياه العكرة اليوم كانت موضعا لآبار ذات مياه عذبة وصافية لا مثيل لها. ولكن تقصير المسؤولين الذين توالوا على تدبير الشأن العام بها يجعل البلدة على وشك كارثة بيئية حقيقية، وواقع هذه البلدية لا يخرج عن واقع العمل السياسي في كثير من أنحاء المغرب الحبيب عموما؛ بل وفي الوطن العربي كافة، حيث يتحمل المسؤولية من هو ليس بكفء للقيام بها.

هذه البلدة كانت المكان الذي تابعت فيه دراستي الإعدادية، ولازلت أذكر أول ليلة قضيتها بها. أذكر أنني في تلك الليلة دخلت الداخلية، وهي مأوى للتلاميذ الذين تبعد سكناهم لأزيد من عشر كيلومترات، كنت أحمل كيسا أضع فيه أغراضي، وغطاء سلموني إياه، كانت رائحته النتنة تزكم الأنوف، كنا نسلك في صف كلاجئين تماما، أطفال بأجساد نحيلة ووجوه واجمة، نحدق في بعضنا ولا يحدّث بعضنا بعضا، ننتظر توزيعنا على المراقد، كانت المرة الأولى التي أعرف فيها معجون الأسنان، والفرشاة، لأنهما كانا من ضروريات الدخول. أذكر أن ذلك كان مساء خميس بالضبط، وكانت أول وجبة لنا في الداخلية،

حساء متجمد، ونصف خبزة باردة، وقطعة جبن. أعجبتني الوجبة ليلتها، فلم أتذوق مثلها من قبل وأنا الذي كانت أغلب وجباتي خبزا وشايا وزيتا أو زيتونا، ولكن سرعان ما أصبحت تلك الوجبة روتينا يكاد يقتلني، ويقطع شهيتي في الأكل، ولا يشبعني البتة. نمت تلك الليلية بين سرير نتن وغطاء أنتن منه، أظنني بت أسامر الهموم، وأناجي الغموم، كدت أن أختنق، أدركت المعنى الحقيقي للمثل القائل «بين المطرقة والسندان»، وكلما غفوت رأيت كوابيس قضت مضجعي وأرعبتني.

في الصباح أحسست ضيقا كبيرا، أحسست بفقد أمي وإخوتي وأبي الذين كنت أنام بينهم، كنت كعصفور فقد أمه وهو لم يقو على الطيران بعد، صرت أنتظر يوم السبت بفارغ الصبر، حيث يُسمح لي بزيارتهم، أذكر أنني كلما عاودتني نوبة الضيق كنت أبكي كطفل متخلى عنه، يحس الضياع، تماما كطفل عبد المعطي حجازي التائه في دروب المدينة:

بلا رفيق

فلم يعره العابرون في الطريق،

حتّى الرثاء!

وحدها رؤية ابن عمي كانت تسلّيني قليلا وتشعرني بالأمان، لكن أصدقاءه كانوا يأخذونه منّي، ويتركونني وحيدا. ومرت الأيام والشهور، وتأقلمت مع الوضع، وتغيرت الأحوال، وصرت أفضل البقاء في الداخلية حتى أيام السبت والأحد، وكان السبب وراء ذلك تلك الساحرة، كرة القدم، التي كنت أقضي يوم الأحد مقسما بين ممارستها في الصباح، والذهاب إلى الملعب البلدي بعد الزوال لمشاهدة المباريات. كلما مررت بهذه البلدة تحضرني ذكريات طفولتي التي أعجز عن تصنيفها الآن، أجميلة كانت أم غير ذلك.

بعد جزولة مرت الحافلة عبر مدن أخرى، آسفي، والجديدة،

والبيضاء. هذا الطريق حفظته جيدا، فقد قضيت سنة كاملة وأنا أخوضه ذهابا وجيئة مرة كل خمسة عشر يوما تقريبا، عندما كنت أتابع تكويني في المدرسة العليا للأساتذة بالرباط. يذكرني هذا الطريق بطرفة لم أنسها، فذات ليلة كان السائق مستعجلا، قاد بسرعة جنونية أحدثت رعبا كبيرا في نفوس المسافرين، وكلما اقترب منه أحدهم وطلب منه أن يخفض من سرعته، هدّده بنبرة حادة: «إن لم تعد مكانك سأحرر المقود من يدي هاتين، وحينها سترون الكارثة الحقيقية، دعوني وشأني فأنا أعرف ماذا أفعل، ينتظرني أمر مهم، عليّ أن أصل عند السادسة صباحا بالضبط»، تساءلت حينها في نفسي، وأعتقد أن الآخرين أيضا فعلوا، تُرى ماذا سيكون هذا الأمر المهم الذي يخاطر هذا الرجل من أجله بحياة خمسين من البشر؟ لم تستطع إيقافه سوى امرأة جريئة قالت له بصوت مسموع:

إن لم تتوقف في أقرب محطة قضيت حاجتي هنا وقربك بالضبط، ضحك المسافرون وأثنوا على هذه الزعيمة. عندها سمح لنا بالتوقف لمدة لا تزيد على عشر دقائق في إحدى المحطات التي استغلت الفرصة وباعت لنا بعض المواد بأثمنة خيالية، اشتريت قنينة ماء سعرها العادي ثلاثة دراهم بعشرة.

عندما وصلنا إلى الرباط نزلت من الحافلة وقادني الفضول- سامحني ربي- إلى التجسس على سائقنا لعلي أعرف سبب استعجاله، تلقته امرأة جميلة، لعلها زوجته، طبعت على خديه قبلتين حارتين، وهمست له بكلمات حسبتها قالت له بنبرة لائمة: لقد تأخرت عني قليلا. حينها عرفت معنى عبارة «ومن الحب ما قتل»، ورددت في نفسي مازحا «ومن الحب ما كاد يقتل خمسين بريئا».

5- الرباط وما أدراك ما الرباط

هي عاصمة المغرب تقع على ساحل المحيط الأطلسي في سهل مستو فسيح، يوجد على الضفة اليسرى من نهر أبي رقراق الذي بينها وبين سلا المدينة القديمة. من طالع كتب التاريخ أو موقع وزارة الثقافة، وجد أن المدينة أسّسها الموحدون في أواسط القرن الثاني عشر، وبنى فيها عبد المؤمن «رباط الفتح» وهي نواة مدينة محصنة شملت بالإضافة إلى القلعة، مسجدا وداراً للخلافة، ويرجع المؤرخون تأسيسها الحقيقي لحفيده يعقوب المنصور، فقد ذكروا أن اكتمال بناء المدينة كان على عهد أبي يوسف المنصور، بما في ذلك السور والبوابات. كانت رباطاً محصناً، ونقطة لتجمع المجاهدين ورد الهجومات البرغواطية في عهد المرابطين. تم تحويل الرباط (الحصن) على عهد عبد المؤمن الموحدي إلى قصبة محّصنة لحماية جيوشه ومنطلقا لهم في حملاتهم الجهادية صوب الأندلس. وفي عهد حفيده يعقوب المنصور، أراد أن يجعل من رباط الفتح عاصمة لدولته، فأمر بتحصينها بأسوار متينة، وشيّد بها عدة بنايات، من أشهرها مسجد حسان بصومعته الشامخة التي تتكلل بالغيوم وتتوشح بالنجوم. أحاط السلطان يعقوب المنصور الموحدي الرباط بسور عظيم عُرف بالسور الموحدي، بلغ طوله 2263م. وهو يمتد من الغرب حتى جنوب المدينة، ويبلغ عرضه 2.5 مترا وعلوه 10 أمتار، وهذا السور مدعّم بأربعة وسبعين برجاً، كما تتخلله خمسة أبواب ضخمة. توالت التطورات والتشييدات على المدينة، ففي القرن الرابع عشر الميلادي أحيط موقع شالة الذي ظل مهجورا فيما قبل بسور خماسي الأضلاع مدعم بعشرين برجاً مربعاً وثلاث بوابات، أكبرها وأجملها زخرفة وعمارة الباب الرئيسي للموقع المقابل للسور

الموحدي لرباط الفتح.

يقول المؤرخون بأن الرباط كانت شاهدة على مأساة الأندلس فآوت الأندلسيين الذين لجؤوا إليها بعد طردهم من إسبانيا واستقروا فيها على دفعات متتابعة بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر، وضمن الدفعة الأخيرة، وصل آلاف الموريسكيين الذي طردوا بقرار من الملك فيليب الثالث في عام 1609م واستقروا في قصبة الأوداية حيث بنوا المدينة الحالية. وفي عام 1912 أصبحت المدينة ذات التاريخ العريق هي المقر الرئيس للمقيم العام الفرنسي.

كثير من هذه المعالم قرأت عنها ولم أزرها، الأمكنة التي أعرفها في الرابط معدودة، عندما تقترب من باب الحد تسمع أصواتا تتعالى وبضجيج يصم الآذان، تختلط فيه نداءات المؤذنين للصلاة، وتوسلات الشحاذين وموسيقى الراي عند بائعي الأشرطة، وصيحات البائعين، الناس هنالك في هرج ومرج يتدافعون بالأكتاف في الدروب الضيقة يطأ بعضهم بعضا ونادرا ما يعتذرون لبعضهم، كثيرون منهم يجرون حقائبهم آتين أو مغادرين للفنادق التقليدية، يثيرون خلفهم سحبا من الغبار المتطاير من الأرض، عندما يصادفون بعض الأشغال العمومية في المكان. زحام شديد في كل الطرق والممرات كما لو أن المدينة كلها كانت على موعد في الخروج. الأطفال كثيرون، في كل مكان، يحملون حقائبهم المدرسية، والنساء يبعن الحلوى.

من أمام باب الحد يمر الترام واي عبر شارع كبير، يفصل بين المدينة القديمة وشارع محمد الخامس، الشارع الكبير الذي توجد به قبة البرلمان، والذي يعد المقر الرئيس لانطلاق المظاهرات الاحتجاجية والنضالات وما أكثرها. هذا الشارع هو نقيض صورة باب الحد، شارع فسيح بواجهات زجاجية فاخرة، ومحلات تجارية تعرض أحدث أشكال الموضة في كل شيء؛ في اللباس والتجهيز المنزلي، والآلات الالكترونية،

والأحديـة، ومنتجـات الزينـة، وغيرهـا. عـلى الواجهـات الزجاجيـة أثمنـة خياليـة صادمـة لمـن هـم مثـلي. وأجمـل مـا في هـذا الشـارع هـو المكتبـات وبائعـو الكتـب الذيـن يعرضـون كتبهـم في الأكشـاك وعـلى قارعـة الطريـق، والرباطيـون قـراء بامتيـاز.

أبـرز معلمـة في شـارع محمـد الخامـس بنايـة البرلمـان، هـذا المـسرح الكبـير الـذي يظهـر مـن خـلال حداثـة بنائـه وتطـور تجهيزاتـه أنـه أنفقـت عليـه أمـوال طائلـة، ربمـا كان ادخـار جـزء منهـا لاسـتثماره في مشـاريع تعـود بالنفـع المبـاشر عـلى النـاس سـيكون أفضـل، يرابـط أمامـه عـلى الـدوام أعضـاء مـن الشرطـة مدججـين بالسـلاح. في البرلمـان يجتمـع القـادة السياسـيون المنتخبـون لمناقشـة قضايـا البلـد، تـذاع جلسـاتهم مبـاشرة عـلى القنـاة الوطنيـة، ولا أعتقـد أن النـاس يتابعونهـا، فكثـير منهـم مـا عـادوا يثقـون في العمليـة الانتخابيـة خاصـة والسياسـية عامـة، وخصوصـا بعدمـا خـاب ظنهـم في أعضـاء الحـزب الـذي كانـوا يراهنـون عليـه، وعرفـوا في فـترة (إدارتـه) لشـؤون الحكومـة، غـلاء معيشـيا وضيقـا في الأجـور والأرزاق.

في فـترة هـذه الحكومـة المقصـودة بالحديـث تـم تمريـر مجموعـة مـن القوانـين، والملفـات التـي لم يجـرؤ أحـد مـن السياسـيين الكبـار قبلهـم عـلى تحريكهـا بالنظـر لحساسـيتها، يتفـق الـرأي العـام المغـربي عـلى أنـه في عهدهـم تـم سـحق الطبقـة المتوسـطة عـن طريـق الاقتطاعـات، وتحريـر سـوق المحروقـات فارتفعـت الأسـعار بشـكل مهـول، وزادت تكلفـة المعيشـة، وانحـصرت وتـيرة التنميـة، وهـم في الحكومـة مـصرّون عـلى التمسـك بكراسـيهم. وقعـت كـوارث طبيعيـة وأخـرى عرضيـة ومـا سـمعنا أحدهـم قـدّم اسـتقالته عـلى غـرار مـا يفعـل المسـؤولون في الغـرب احترامـا واعتـذارا لشـعوبهم. كثـير منهـم بـدّل مبادئـه وقيمـه ودخـل الحداثـة ومـا بعـد الحداثـة مـن أبوابهـا الواسـعة، تداولـت وسـائل التواصـل الاجتماعـي ووسـائل الإعـلام الراصـدة بعـض أشـكال تهافتهـم عـلى الدنيـا وملذاتهـا،

وبعض أساليب تصابيهم، وهم الذين دخلوا الانتخابات ببرنامج أخلاقي محض، صار بعض منهم يجري وراء تكديس الثروة، وكأنهم يعملون بمقولة «استغل الفرصة، فقد لا تتكرر».

تعاني العملية السياسية في المغرب، على غرار أغلب الدول العربية، من كثير من الأعطاب، ففي داخل قبة البرلمان، يجتمع النواب، منهم المثقفون فعلا، لكن عددا منهم ذوو شواهد مدرسية متواضعة قد لا تتعدى شهادة الباكالوريا، وتتداول بعض الأخبار أن فيهم من اكتفى بالشهادة الابتدائية. عجبا لمثل هؤلاء، لمن هم من الفئة الأخيرة، كيف يطيب لهم أن يرشحوا أنفسهم لمثل هذه المهمات الجسيمة؛ لكن العجب كل العجب لأولئك الذين ينتخبونهم، ألا يظن هؤلاء وأولئك أن المسؤولية عظيمة تتعلق بالتقرير في قوانين البلاد وقضاياها الكبرى: التعليم والصحة والشغل والاقتصاد والسياسة الخارجية والداخلية! أم أن همهم هو التعويضات السمينة والامتيازات والتقاعد المريح.

عندما أشاهد جلسة من جلساتهم، وهذا نادرا ما يحدث، لا تخلو تلك الدقائق القليلة من مستملحات وطرائف من المضحكات المبكيات، أشخاص يتحدثون العامية بإعراب الفصحى، وآخرون يتحدثون عربيتهم الخاصة ينصبون المرفوع ويرفعون المنصوب، وبعضهم يتهجى الحروف، ذات يوم سمعت أحدهم يقول: «ونحن نشكر الحكومة وخصوصا وزارة الكهرباء التي استطاعت أن تكهرب عشرين بالمائة من العالم القروي ولم يبق لها سوى ثمانين بالمائة»، فيا لها من مقارنة عجيبة، وكأن العشرين أصبحت، في منطق هذا الرجل، أكبر من الثمانين، والفيديوهات التي توثق مثل هذه النوادر كثيرة ومتداولة عبر وسائل التواصل، أصبحت محط سخرية لاذعة مما هز صورة البرلمان باعتباره مؤسسة محترمة للتشريع. وربما كان الحسن الثاني -رحمه الله- محقا حين نعت هذه المؤسسة بـ«السرك»، عندما لاحظ ترهات بعض البرلمانيين التي ينشغلون

بهـا عـوض تمثيـل مـن انتخبوهـم ومناقشـة قضاياهـم ومشـاكلهم.

يشـكل شـارع محمـد الخامـس الواسـع محطـة عبـور لأمـواج بشريـة خـلال المسـيرات والتظاهـرات، تـأتي مـن كل فـج عميـق مـن المغـرب الحبيـب تلبـي نـداء فلسـطين الحبيبـة، تصبـح القبلـة واحـدة هـي الربـاط. كـم حرثنـا هـذا الشـارع، وكـم دككنـا أرضـه الإسـمنتية بأحذيتنـا وسـط جمـوع غفـيرة، ونحـن نتخيـل أننـا نـدك أمريـكا والصهاينـة، ونرفـع الشـعارات بأصـوات عاليـة:

سـحقا سـحقا بالأقـدام == للصهيـون وماريـكان== سـحقا سـحقا بالأقـدام == لدعـاة الاستسـلام.

سحقا سحقا للأقزام == لدعاة الاستسلام.

يـا صهيـون سـير بحالـك == فلسـطين مـاشي ديالـك == أمريـكا سـيري بحالـك == بـلاد العـرب مـاشي ديالـك.

خيبر خيبر يا يهود == جيش محمد سيعود

فلسـطين تقـاوم == الأنظمـة تسـاوم == يـا صهيـون اطلـع بـرا== فلسـطين أرض حـرة

الشـعوب قمعتوهـا == وفلسـطين ضيعتوهـا == الشـعوب قمعتوهـا == وفلسـطين بعتوهـا

يا شهيد ارتاح ارتاح == سنواصل الكفاح

المغرب وفلسطين == شعب واحد مش شعبين

وماذا عسى هـذه الحناجـر أن تقـدم للقضيـة الفلسـطينية غـير الـصراخ بأعـلى صـوت؟ ولكـن رفـع الصـوت ينبـئ عـما في القلـب. فلنرفـع أصواتنـا مسـتنكرين غاضبـين، فهـذا أقـل مـا يكفـي ليعـرف عدونـا قبـل صديقنـا أن موقـف الشـعوب العربيـة مـن القضيـة الفلسـطينية ليـس هـو موقـف أنظمتهـا.

خـلال الفـترة الأخـيرة، فـتر اهتـمام الشـارع بالقضيـة الفلسـطينية

وانصب على المشاكل الاجتماعية التي توالت فرادى وزرافات على الرقاب، فانشغل الشعب المسكين بالغلاء المعيشي وضعف الخدمات وضياع حرية التعبير وحقوق الإنسان، عشنا انتكاسة حقيقية، تحول هذا الشارع وما جاوره إلى مسيرات بألوان الطيف، فئات مختلفة يوحدها إحساسها بالقهر، تنادي بالكرامة والحرية والعدالة الاجتماعية، تطالب بالخبز والماء والشغل وأبسط الحقوق، وتندد باعتقالات المناضلين. ومن الشعارات التي ظهرت في هذه الآونة:

يا نساء، يا رجال *** اتحدوا في النضال *** لتكسير الأغلال *** غايتنا حقوقية

الحكومات مشات وجات والحالة هي هي *** عييتونا بالشعارات والحقوق فين هي؟

علّ صوتك يا مواطن، علّ صوتك يا صحافي *** بالنضال والصمود تزال عنا القيود.

هذه وقفة احتجاجية *** ضد قمع الحرية ***هذا عيب هذا عار *** حقوق الإنسان في خطر

الحرية وينك وينك *** وضع السجون بينا وبينك

هذا عار، هذا عار *** الحريات في خطر *** سوا اليوم سوا غدا *** الحرية ولا بدا

اعتقالات اختطافات *** تؤجج النضالات *** اعتقالات استشهادات *** تؤجج النضالات

هذا مغريب الله كريم * ** لا صحة لا تعليم

غير بعيد من القبة البرلمانية وبعد تجاوزك لمحطة القطار، تكون في باب الرواح، حيث مقر وزارة التربية والتعليم. هذا المقر لا يخلو مدخله على امتداد السنة من ذوي الوزرات البيضاء من المحتجين والمتظاهرين من نساء ورجال التعليم الذين تتعدد مشكالهم وتنسيقياتهم

وتسـمياتهم؛ تنسـيقية المعطلـين؛ وتنسـيقية المديريـن؛ وتنسـيقية حملـة الشـواهد؛ وتنسـيقية الزنزانـة 9؛ وانضافـت إليهـم مؤخـرا تنسـيقية الأسـاتذة الذيـن «فـرض عليهـم التعاقـد»، منهـم مـن يعتصـم في المـكان رفقـة أطفالـه الصغـار، ومنهـم مـن يصطحـب والديـه العجوزيـن.

هـؤلاء يظلـون يصدحـون بأعـلى أصواتهـم في العـراء تحـت المطـر شـتاء والشـمس صيفـا، وخلـف زجـاج البنايـة موظفـون يجلسـون خلـف مكاتـب مجهـزة بمكيفـات، ويرقبـون الموكـب، دون مبـادرة للحـوار. بينـما تتـولى وزارة الداخليـة مسـؤولية التعامـل مـع الوضـع، تنهـج مـع المتظاهريـن سياسـة الكيـل بمكيالـين، تغـض الطـرف عنهـم حتـى إذا تحفـزوا أكـثر وتزايـد عددهـم وصعّـدوا مـن أشـكال نضالاتهـم باغتتهـم في تدخـلات تسـتعمل فيهـا شـتى الأشـكال المتاحـة مـن رفـس وركل ورش بالخراطيـم المائيـة وغيرهـا. أمـا مصلحـة التلميـذ فتضيـع في غمـرة سياسـة شـد الحبـل بـين الأطـراف.

مـن الملفـات الحارقـة التـي تابعهـا الـرأي العـام المحـلي والعالمـي عـلى حـد سـواء، في الآونـة الأخـيرة، ملـف الأسـاتذة المتعاقديـن، أو الذيـن «فـرض عليهـم التعاقـد» كـما يسـمون أنفسـهم، كان هـذا النظـام مـن التشـغيل مـن المخرجـات التـي فاضـت بهـا عبقريـة هـذه الحكومـة الموقرة. التشـغيل بنظـام العقـدة، وبـشروط أقـرب مـا تكـون إلى شروط العبوديـة القديمـة، كما يقـول المعنيـون، مـما أثـار حفيظـة هـؤلاء الذيـن أغلبهـم شـباب ودخلـوا سـاحة النضـال بتحفـز زائـد، خانتهـم التجربـة وغابـت عنهـم أبجديـات النضـال، فاسـتهلوا سـلمه مـن أعـلى درجاتـه، وهـذه مـن الأمـور التـي عابهـا عليهـم كثـير مـن المتتبعـين، دخلـوا في إضراب مفتـوح ومقاطعـة للحجـرات الدراسـية، وتركـوا آلاف التلاميـذ أبنـاء الطبقـات المسـحوقة مـن غـير دراسـة، خطـأ عليهـم الاعـتراف بـه، ظـن المسـاكين أن الـوزارة سـتكترث لهـذا الأمـر وستسـارع إلى تلبيـة مطالبهـم، لكـن هيهـات فـلا ينبغـي أن يُسـمع عـن

الدولـة أنهـا انهزمـت أمـام مطالـب هـذه الفئـة بهـذه السـهولة، نهجـت معهـم سياسـة التجاهـل، وكانـت ترسـل إليهـم الشرطـة لتكـرم وفادتهـم من حـين لآخـر، حتـى عـادوا إلى أقسـامهم تحـت تهديـد الـوزارة بقطـع أرزاقهم، وشروعهـا في الاقتطـاع مـن رواتبهـم تعويضـات عـن أيـام اعتصامهـم.

في بلدنـا، كـما في باقـي البـلاد العربيـة، قـد يتعطـل قطـاع التعليـم أو الصحـة أو ربمـا حتـى قطـاع آخـر أكـثر حيويـة، ولكـن البـلاد تمـشي وكأن شـيئا لم يحـدث، وقـد عشـنا في سـنة 2017 بـدون حكومـة لمـدة ناهـزت خمسـة أشـهر، فهـل نضيـق ذرعـا بغيـاب المدرسـة؟

هـذا اليـوم يصـادف هدنـة، والربـاط هادئـة كعـروس بعـد ليلـة دخلتها، الرجـال بألبسـتهم الأنيقـة وربطـات العنـق جالسـون إلى شرفـات المقاهـي، في الغالـب بـدون نسـاء وبـدون أطفـال، منكبـون عـلى قـراءة الجرائـد أحيانا وخائضـون أحيانـا أخـرى في مناقشـات ثقافيـة هادئـة وبـاردة، وأحيانـا بلغـات غـير العربيـة، يجلسـون في هـدوء تـام كـما لـو أنهـم ينتظـرون قطارا لـن يمـر أبـدا مـن أمـام محطاتهـم. يرتشـفون القهـوة والشـاي وينفثـون أكواما مـن الدخـان في الفضـاء الممتـد. غريـب أمـر هـؤلاء المغاربـة عندما تراهـم يمـلأون المقاهـي تحسـبهم يعيشـون في رغـد كريـم، بينـما هـم يأتون إليهـا ليبـددوا قليـلا مـن أحزانهـم ويرتشـفوا بعـض الترياق لآلامهـم مـع قهـوة سـوداء مـرّة، مرارتهـا أهـون مـن مـرارة عيشـهم أحيانـا.

6- واه على الحياء!

أما النساء في شارع محمد الخامس ففئة منهن متحررات، يجلسن على شرفات المقاهي الراقية فرادى أو في ثنائيات أو حتى في مجموعات، في زينة مكشوفة، وشفاه بجميع ألوان الطيف، لا يتورعن من وضع أرجلهن واحدة على الأخرى على الرغم من ملابسهن الضيقة، منهن من تدخن السجائر الغالية علانية. يخضن في نقاشات مختلفة، ويتحدثن في الهواتف. وفي الحدائق العمومية شباب وشابات مراهقون يتبادلون القبل والعناق على مرأى من العموم دون حشمة، آه كم تغيرت الحياة بين عشية وضحاها! بالأمس القريب كان الحياء ينشر ثيابه على أخلاق الناس وسلوكاتهم، واليوم بدأ يرُفع من على هذه الأرض، بعد أن غزتنا العولمة رغما عنا.

إذا لم تخشَ عاقبةَ الليالي == ولم تستحِ فاصنعْ ما تشاءُ
فلا واللهِ ما في العيشِ خيرٌ == ولا الدنيا إذا ذهب الحياءُ
يعيشُ المرءُ ما استحيا بخيرٍ == ويبقَى العودُ ما بقي اللِّحاءُ

يحضرني مشهد لا يفارقني، مشهد شاهد على الحياء الضائع، فقد كنا في قريتنا عند نزول الليل نتحلق نحن الرجال داخل الغرفة لمشاهدة التلفاز الذي يأتي به عمي مبارك من المدينة طيلة المدة التي يقضيها في البادية صيفا، وعندما يعود يأخذه معه. قلت، كان الرجال في الداخل بينما تجلس أخواتي وأمي وبنات عمي في الخارج، بعد أن تكون أختي الكبيرة قد أعدّت خطتها خلسة، كانت الوضعية التي تضع بها التلفاز قرب الباب في زاوية مائلة تسمح لهن بالمتابعة تماما كما لو كنّ في داخل الغرفة. ذات ليلة خميس كنا نشاهد فلما أجنبيا في «سينما الخميس»، وفجأة ظهرت امرأة بشعر مسدول وذراعين عاريتين ووجه

مصبـوغ في سريـر فسـيح، بـدأت القلـوب تـدق بوثـيرة متزايـدة، ثـم ظهـر رجـل يدخـل الغرفـة متسـللا، فـازدادت القلـوب خفقانـا، ثـم بـدأ يدنـو منهـا، أظـن أننـي سـمعت حينهـا جلبـة في الخـارج لعلهـا كانـت وقـع أقـدام تنطلـق بعيـدا، أقـدام النسـوة اللـواتي كـن يتابعـن الفلـم مـن الخـارج قـد فـررن اسـتحياء. ولحسـن الحـظ اكتفـى الرجـل بتقبيـل جبينهـا، عنـد هـذا الحـد ثـم قطـع المشـهد، كان المسـؤولون عـن التلفـاز يومهـا هـم الآخـرون يتسربلـون بسربـال الحيـاء، فيمارسـون رقابـة عـلى الأفـلام الأجنبيـة؛ يلجؤون إلى المقـص قبـل البـث. سـأل أبي عمـي مبـارك: مـن هـذا الرجـل؟ لم أدر هـل كان يسـأل بجـد أم أنـه سـأل لغايـة أخـرى، وأعتقـد أن عمـي مبـارك كان ذكيـا وعـرف قصـد أبي فقـال بصـوت مرتفـع حتـى يسـمع الجميـع: هـذا أخوهـا، حينهـا تنفسـنا الصعـداء. ربمـا كان الجميـع عـلى وعـي تـام بمـا يحـدث بـين الرجـل والمـرأة، ولكـن كانـوا يسـتحيون ويتغابـون تجنبـا للإحـراج.

7- مدينة المتناقضات

وأنت تجوب شارع محمد الخامس ترى، من بين أبرز المظاهر المتفشية، متسولين يجلسون بشكل تعاقبي على طول واجهتي الشارع، ويستوفقك من حين لآخر كفيفا يضع أمامه فوطات «الكلينكس» ولافتة تحتوي عبارة تدعو المارة إلى التعاون معه، وتكشف عن هويته: كفيف معطل. تتساءل بحرقة أليس من حق هؤلاء المساكين أن ينعموا بعيش كريم من حيث كونهم لم يختاروا قدرهم كما لم يختاروا العيش في هذه البلاد.

كثير من المكفوفين أصحاب شواهد ومواهب، قضوا العمر بين المقاعد، وحصّلوا أعلى الدرجات والمراتب، ينادون بأبسط المطالب، لكن أنى يسمعهم مسؤول حب الوطن عنده غائب، يتصرف بسلوك المتهور السائب؟ نسمع من حين لآخر أنهم يطالبون باللجوء الإنساني الجماعي إلى بلاد أخرى كلما وصل حوارهم مع الوزارة المعنية إلى الأبواب الموصدة. كيف نترك بعضا من هؤلاء يتسولون في مذلة، يمدون أيديهم للقاصي والداني، ونحن من أغنى الدول، يقال: إن عائدات الفوسفاط والمناجم والبحر خيالية لا يصل لأبناء الشعب منها إلا الفتات. صدق من قال: إنهم يسمحون لنا بأن نأكل بالقدر الذي يبقينا أحياء لا غير. ويا لغرابة هذه البلاد، خيرات لا تحصى، بعدد الدر والحصى، تقدر بأعداد النجوم، وقطرات الغيوم؛ كثرة الثروات، ووفرة الخيرات، لكن لا أحد يعرف أين تذهب العائدات والمستخلصات، بفعل تفشي الفساد. وقد تساءل ملك البلاد نفسه في أحد الخطابات، ذات مرة، بلهجة غاضبة مُرّة: أين الثروة؟

ليس هذا هو المنظر الأكثر درامية، ولكن هناك مناظر أخرى تمزق القلوب، وتقطع الأكباد فتذوب؛ نساء ورجال من أعمار مختلفة يجرّون خلفهم أطفالا شعثا غرلا بثياب متسخة وممزقة، يكتوون بألسنة الشمس الحارقة صيفا، ووخز البرد القارس شتاء، لا يكفون عن ترديد توسلاتهم الشاحذة باللغة السورية، أغلبهم سوريون حقا، وبعضهم مغاربة يحترفون التسول، تعلموا هذه اللهجة يرددونها لا يعرفون غيرها: «سوريون يا إخوان، تعاونوا معنا يا إخوان». أحدق فيهم وأتعجب كما تعجب أبو ذر الغفاري «عجبت لمن لا يجد قوت يومه كيف لا يخرج على الناس شاهرا سيفه»، ويحضرني قول ابن السماك: «لولا ثلاث لم يقع حيف، ولم يسل سيف: لقمة أسوغ من لقمة، ووجه أصبح من وجه، وسلك أنعم من سلك».

هؤلاء كان من حقهم أن يعيشوا في وطنهم آمنين مطمئنين، ولكن حب الكرسي أعمى حاكمهم، وقايض بكرسيه كل شعبه، يا للعار! سوريا بلاد الشام، بلاد الكرامة والعز التي كانت يوما ما مركز الخلافة الإسلامية الأموية، يتحول أبناؤها وبناتها إلى شحاذين في بلاد أخرى، يتسولون قوت يومهم في العراء، أي عار لحق هذه الأمة، بأي وجه تلقى الأمم؟ لا يسعني إلا أن أردد بصوت الأسى وأنين الحسرة مع شاعر الأمة العربية والقضية الفلسطينية عمر أبو ريشة:

أمتي هل لك بين الأمم *** منبر للسيف أو للقلم
أتلقاك وطرفي مطرق *** خجلاً من أمسك المنصرم
ويكاد الدمع يهمي عابثا *** ببقايا كبرياء الألم
كم تخطيت على أصدائه *** ملعب العز ومغنى الشمم
وتهاديت كأني ساحب *** مئزري فوق جباه الأنجم
أمتي كم غصة دامية *** خنقت نجوى علاك في فمي
الإسرائيل تعلو راية***في حمى المهد وظل الحرم؟
كيف أغضيت على الذل ولم *** تنفضي عنك غبار التهم؟

ليس السوريون وحدهم من يجوبون الشارع بحثا عن درهم أو لقمة يقيمون بها أصلابهم، ولكن هناك إخوة أفارقة، تميزهم سحناتهم السمراء، وفرنسيتهم التي بدأوا يتخلون عنها بعدما تعلموا عبارات من الدارجة المغربية. يجوبون الشارع بأحذية رثة وسراويل ممزقة، نساء ورجال؛ قليلون منهم يمتهنون تجارة بعض المواد البسيطة، وبعضهم يبيع المواد المقوية والشافية من البرد؛ تجارة يقبل عليها الرجال بكثرة، ونساء يوشّمن أذرع الأطفال ويضفرن للبنات شعورهن بالطريقة الإفريقية المعروفة، وفئة أخرى تستوقف السيارات عند إشارات الوقوف بأصوات حزينة ودعوات رقيقة. صدق من قال: الرباط ملتقى الثقافات، هي مدينة المتناقضات بامتياز. وأنا أعبر الشارع وأرى هذه الأنواع من البشر، لا ينقذني من هذه الصورة القاتمة إلا الساحة الخضراء وأسراب الحمام تخالط الناس لا تخافهم، يلقون إليها الفتات فتدنو منهم ويأخذون الصور التذكارية معها، ثم مكتبة حديثة تعرض الجديد في عالم الفكر والأدب، أهرع إليها فأحشر نفسي بين رفوفها محاولا أن أدفن بين الكتب آلامي وأحزاني التي أنوء بثقلها.

قبل الوصول إلى مقر السفارة الأردنية كان علي أن أتوقف في حي التقدم، حي لي معه ذكريات عندما قضيت به سنة كاملة من التكوين في المدرسة العليا للأساتذة، هذا الحي شعبي بامتياز، مشيّد على أرضية غير مستوية، أزقته ضيقة جدا إلى حد أنك لو مددت رأسك من نافذة لاطلعت على كل ما يدور في البيت المقابل عبر النافذة الأخرى، يسمع الناس أحاديث بعضهم ولا يأبهون، دائموا الشجار لكنهم سرعان ما يتصالحون ويتضامنون عند الأزمات والنكبات. كنا نكتري شقة صغيرة في منزل قديم من ثلاثة طوابق، عند «أمي هنية»، امرأة تعيش رفقة بنتين وولدين أحدهما متزوج، يتكدسون في شقة صغيرة ويؤجرون شقتين، ابنها المتزوج في السجن، وهي تصنع الخبز في فرن يشتغل

بالبوتـان أسـفل الـدرج وتبيعـه، أتذكـر رائحـة الخبـز المصنـوع مـن القمـح الطـري تطالعنـي مـن مقـدم الزقـاق وأنـا عائـد مـن المدرسـة العليـا، أسـتلذ سـخونة الخبـز ورائحتـه وقـت الـبرد، نصنـع منـه، مـع بـراد الشـاي المنعنـع وزيـت الزيتـون الحـر، وجبـة شـهية للمسـاء.

عندمـا تتوقـف هنـاك في الشـارع الطويـل الممتـد، تقـف عـلى صـورة متناقضـة أخـرى، فعـلى يمـين هـذا الحـي الشـعبي المتواضـع يوجـد حـي راق جـدا، فيـلات فاخـرة تحيـط بهـا مسـاحات خـضراء ممتـدة، حـدث ذات يـوم أن كنـا نجـري أنـا وصديقـي في حصـة رياضيـة، اسـتهوتنا مسـاحة خـضراء فجرينـا فيهـا، فـإذا بحـارس يسـتوقفنا ويحثنـا عـلى أن نعـود مـن حيـث أتينـا محـذرا، لأننـا دخلنـا في حمـى إحـدى الفيـلات.

الربـاط مـن أكـثر المـدن التـي أحـس فيهـا فعـلا أننـي غريـب، النـاس يجـرون سراعـا لا يأبـه بعضهـم لبعـض، ولا يتبادلـون التحيـة إلا نـادرا، يأكلـون ويطالعـون واقفـين وماشـين وفي الباصـات والـترام، مدينـة أحـس فيهـا باختنـاق كبـير، وضغـط رهيـب، ولا تهـدأ إلا في آخـر الليـل، لكنهـا تسـتيقظ باكـرا.

8- في السفارة الأردنية: التأشيرة أو لا دخول

هـا أنـا أقـف أمـام موظـف أردني بالسـفارة، رجـل بسـحنة أردنيـة أصيلـة، شـعر طويـل إلى حـد شـحمتي أذنيـه وشـارب كـث يغطـي شـفته العليـا، طيـب الخلـق، بشـوش الوجـه، يرتـدي سروالا إيطاليـا واسـعا قليـلا مـن جهـة القدمـين ومعطفـا أبيـض، سـلمني جـوازي الـذي تركتـه قبـل نصـف سـاعة عنـد أحـد الموظفـين مـع طلـب الحصـول عـلى تأشـيرة، كانـت عـلى محيـاه ابتسـامة طلقـة وهـو يريني التأشـيرة معلقـا: «تفضـل سـيدي، هـذه التأشـيرة صالحـة لمـدة شـهر كامـل للدخـول إلى الأردن والخـروج منهـا»، تعجبـت: أكل هـذا التعـب مـن أجـل هـذه الخربشـة الصغـيرة وهـذا الطابـع الأزرق؟ لكننـي سررت في الآن نفسـه للسرعـة التـي تمـت بهـا الاسـتجابة لطلبـي، فالمعهـود في إدارتنـا هـو الانتظـار و»سـير حتـى ترجـع» (اذهـب وارجـع بعـد فـترة)، لكـن فرحتـي لم تكتمـل؛ تأملـت الجـواز بـين يـدي فحاصرتنـي أسـئلة محـيرة: لمـاذا نحتـاج هـذا الجـواز وهـذه التأشـيرة ونحـن في بـلاد اللـه التـي هـي ليسـت لأحـد غـيره هـو الـذي يـرث الأرض ومـن عليهـا؟ ألم يدرسـونا في المدرسـة أن الوطـن العـربي بـلاد واحـدة مـن المحيـط إلى الخليـج؟ ألم يقولـوا بـأن العـرب أمـة واحـدة؟ لمـاذا يشـترطون إذن هـذا الصـك لعبـور حدودهـم؟

عندمـا دخلـت المـرة الأولى للسـفارة لم يعترضنـي أحـد واسـتقبلني موظـف أردني بشـوش بالترحيـب، لكـن في المـرة الثانيـة اعترضنـي مسـؤول مغـربي، وطلـب منـي أن أتخـلى عـن محفظتـي التـي فيهـا أوراقـي وأمتعتي، بدعـوى أن القوانـين تمنـع أن يحمـل الداخـل السـفارة أي شيء، ولم يسـلم مـن تعزيـره الشرطـي المسـكين الـذي كان يحـرس مقـر السـفارة.

أمامـي شـابة في مقتبـل العمـر رفقـة امـرأة تبـدو أنهـا أمهـا، تحـاور أحد

المسؤولين، تتوسله تكاد تذرف الدموع، علمت من خلال حوارهما أنها تريد الحصول على تأشيرة لأنها تنوي مرافقة زوجها الأردني، ولكنها تنقصها إحدى الوثائق، كان الموظف يشرح لها بتفصيل، بينما تزداد هي توترا، بدت لي أكثر تصميما على مغادرة هذه البلاد على عجل، تذكرت أولئك الذين يأتون إلى هذا الحي الإداري يبحثون عن تأشيرة إلى أي بلد غير بلدهم هذا، بعدما يئسوا فيه، ومنُوا بشتى أنواع المذلة والهوان، تعددت الوجهات في السنوات الأخيرة: الولايات المتحدة، والسويد، وكندا، وأستراليا...والدافع واحد؛ الهروب من جحيم هذه البلاد الذي تزداد ناره تسعّرا في ظل غياب المسؤولية وحب الوطن لدى البعض ممن لا يتورعون.

وتذكرت أولئك الذين هم أكثر يأسا واستعجالا في مغادرة هذه البلاد، الذين يغامرون فيركبون أمواج البحر باحثين عن سبل سرية توصلهم إلى الضفة الأخرى، الضفة الجنة، الضفة الحلم، بعدما تحول الوطن في ظل الفساد إلى جحيم يكتوون بناره يوميا، وتابوت لإقبار أحلامهم، تذكرت كم عدد الذين قضوا وسط المحيط أو البحر وصاروا طعاما للحوت، وكم أولئك الذين عادوا جثتا هامدة، كم تركوا من أم مكلومة تذرف الدمع مدرارا. وكم تركوا من أرامل يعافسن الرجال، مكرهات لا بطلات، بحثا عن لقمة لأطفالهن، ودواء لأمراضهن، وكم خلّفوا من أيتام بلغوا قبل الأوان!

خرجت من السفارة الأردنية تائها وحائرا، تطلب مني الأمر وقفة متأنية والاستعانة بأحد رجال الشرطة للاهتداء إلى الوجهة الصحيحة، عدت أدراجي وفي القلب غصة، وأنا أقلب الجواز بين يدي المرتعشتين، أتساءل عن جدوى هذه الوثيقة، ولسان حالي يردد:

أيها الحالم!

لأوهامك لا تخضع!

إني لك ناصح فاسمع!
أنت لست يوسف
وحلمك ليس رؤيا فلا تطمع!
إن هو إلا أضغاث فارجع!
زارك شيطان الهوى
وظننته هاتفا جاء فألقى
فبنيت صروحك على الأوهام
وألقيت مركبك في صحراء
تغوص في رمالها الأقدام
وصرت كل صباح تحاول الإبحار
وتجدف إلى الأمام
لكن غاص المركب
وغاصت الأقدام
وصرت مقيدا
في أغلال الآلام
تتلوا ترانيم الحزن
ترددها معك الأطيار والهوام

9- من السطات إلى مطار محمد الخامس

لما حان موعد السفر توجهت من مدينة السطات نحو مطار محمد الخامس بالبيضاء. والسطات مدينة لها تاريخ عجيب، مدينة مغربية تقع بين الدار البيضاء ومراكش، على ارتفاع يفوق سطح البحر بحوالي 370 مترا، مما جعل منها محطة قائمة في قعر هضاب الشاوية. ارتبطت هذه المدينة باسم رجل بارز في تاريخ الدولة المغربية، وزير الداخلية السابق، الذي اجتهد في النهوض بها على جميع الأصعدة، وحاول أن ينافس بها مدنا عريقة أخرى، بل إن من أعجب العجاب أنه منح سطات، وهي مدينة داخلية، إطلالة على البحر وأمّن نقل الساكنة من المدينة إلى «سيدي رحال»، وأنشأ فيها منطقة صناعية تمكنت من جلب استثمارات كبرى عبر شركات ذات صيت دولي. فليت كل مسؤول عن مدينة اعتنى بمدينته. كان هذا الرجل اليد اليمنى للحسن الثاني -رحمه الله- والرجل الثاني في هرم السلطة من بداية الثمانينيات إلى نهاية التسعينيات. ارتبط اسمه بسنوات الرصاص، التي تمت فيها تصفية عدد مهم من معارضي النظام الحاكم. كان ذلك في فترة بين ستينيات وثمانينيات إلى بداية تسعينيات القرن العشرين، إذ شهدت تلك الحقبة التاريخية المضطربة انتهاكات خطيرة في حق المعارضين ممن تورطوا في التخطيط لانقلابات؛ من اعتقال قسري بدون محاكمة، إلى سرية أماكن الاعتقال، إلى أن بلغت أحيانا حد الإخفاء والتعذيب، شهدت تلك الفترة انقلاب الصخيرات ومحاولة انقلاب أوفقير، وهي انقلابات جاءت من محيط الراحل الحسن الثاني، فأدى المجتمع المدني ثمنها.

وفي عام 1999، قرر محمد السادس الملك الجديد إقالة وزير أبيه

وذراعه اليمنى من مهامه وعزله من منصبه، وهو القرار الذي لقي ترحيبا واسعا في أوساط الشعب المغربي واستبشروا به خيرا. ثم نفى الوزير السابق نفسه إلى باريس، هناك حيث قضى ما تبقى من عمره إلى أن توفي مريضا سنة 2007.

مدينة سطات التي اختار لها الوزير رمز الحصان الذي يتوسط تمثاله ساحة في قلب المدينة رمزا دالا على شهامة أبناء الشاوية، تعيش اليوم تراجعات كبيرة على شتى المستويات؛ اقتصاديا واجتماعيا وأمنيا، وكأن التنمية عندنا ترتبط بأشخاص لا بمؤسسات.

أوصلني صهري عبد الله في سيارته مشكورا، ودعته ودعا لي بالتوفيق ثم عاد. ولجت المطار فبدأت سلسلة من التفتيشات الدقيقة، حينها علمت لماذا يطلبون منك الحضور إلى المطار قبل ساعتين على الأقل من موعد الإقلاع، تجاوزت الممر الأول، كان علي اللحاق بصديقي إدريس وعبد الرحيم، لم أعرفهما من قبل ولا رأيت صورتيهما، تواصلنا عبر البريد الالكتروني والهاتف، لم أحتج وقتا طويلا ولا نعوتا في التعرف عليهما، قادني إليهما قلبي مباشرة أمام منصة تسجيل المعلومات الأمنية، القلوب عند بعضهما كما يقولون، وأرواحنا ائتلفت في الملكوت قبل أن تلتقي أجسادنا على الأرض، توجهت إليهما مباشرة وكأنني أعرفهما منذ زمن، وجدتهما طيبين، والرحلة لا تحلو إلا برفقة طيبة، كنت واثقا من ذلك قبل رؤيتهما، فأنا مؤمن بأن ربي يستجيب دعوة والدي التي يرددانها لي في مناسبات عديدة: «الله يلاقيك مع ما حسن منك»، وترجمتها إلى الفصحى «نسأل الله أن ييسر لك اللقاء بمن هم أفضل منك». تعانقنا كإخوة أشقاء طال شوقهم لبعضهم، بعدها دخلنا في عملية تفتيش أخرى؛ طُلب منا وضع كل ما نحمل معنا في إناء، والتخلي عن كل شيء معدني معنا، كنت لا أزال متسمرا مكاني من شدة هول الموقف، لم كل هذه القسوة في التفتيش، ألهذا الحد فُقدت

الثقة؟ ألهذا الحد أصبح الإنسان كل إنسان موضع شك؟ لعن الله الإرهاب، هذا الوباء الذي سبب لنا كل هذا التضييق. نظر إلي شرطي وأشار إلى سروالي، كاد قلبي ينخلع، أتراه يطلب مني نزعه هو أيضا؟ تنبّه صديقي عبد الرحيم لدهشتي وحدس ما بي لأنه صاحب تجربة، فابتسم ابتسامة خفيفة وطلب مني أن أزيل الحزام، عندها أحسست بقلبي يستعيد إيقاع نبضه.

بعد هذا الحاجز مررنا بآخر، أُمرنا بالوقوف والنظر في شاشة كاميرا، الشرطي يحدثني؛ عفوا ينهرني: اقترب أكثر من الكاميرا، يقلب الجواز ويحدق فيّ، يسألني عن اسمي وهو بين يديه، إلى أين؟ ومن أجل ماذا؟ إجراءات مشددة أحسسنا حال انتهائها بزوال ثقل كبيرعن كواهلنا كنا ننوء بحمله، كنا نلعن في داخلنا داعش والإرهاب. عندما أنهينا كل الإجراءات دلني شرطي على الممر المؤدي إلى قاعة الانتظار ومد إليّ يده محييا وقال لصديقي: هذا هو صديقي وأشار إلي، لم أعرف السبب الذي دفعه إلى هذا القول ألأنني كنت ملتحيا؟ هذ حال الشرطي المغربي، قاس في عمله طيب بعد أدائه. تذكرت ذات ليلة كنا نجتمع في جلسة ذكر فباغتتنا دورية للشرطة بعدد مهم من الأعضاء، أخذونا إلى المخفر وبتنا الليلة ننتظر دورنا في الاستنطاق، وبعدما حققوا هويتي مع طلوع الفجر تماما، قال لي أحدهم غير مبال بتعبي: المعذرة، مجرد إجراءات لا غير، فلا تقلق.

انتهى بنا المطاف إلى قاعة الانتظار هناك حيث الناس يجلسون كغرباء منعزلين، قليلون هم الذين يتحدثون فيما بينهم، كل واحد غارق في شاشة هاتفه، تراهم مجتمعين؛ لكن حين تقترب منهم لا تسمع لهم حسا ولا همسا، إلا نقر الأسابع على الشاشات، كل ما جمعهم هو عمود مآخذ التيار لشحن الهواتف، وبعضهم يحرث القاعة ذهابا وجيئة يتحدث إلى هاتفه يضحك أحيانا ويعبس أخرى.

بعد ساعة ونصف تقريبا حان موعد الإقلاع، صعدنا درج الطائرة، استقبلتنا مضيفة جميلة وأنيقة:

غادة زانها من الغصن قدٌّ == ومن الظَّبي مُقلتان وجِيدُ

استقبلتنا بعبارات الترحيب وبابتسامة عريضة تكشف عن أسنان مثل البرد، أخذنا أمكنتنا، وطلب منا وضع أحزمة السلامة، بعدها ألقى علينا الربان خطبة رقيقة، رحّب بجميع الركاب وشكرهم على ثقتهم في الخطوط الملكية المغربية، ثم أخبرنا أنها الرحلة الأولى المباشرة من البيضاء إلى عمان.

ها أنت أيها البدوي تركب الطائرة، نعم الطائرة دفعة واحدة! أرقى وسائل النقل الحديثة، ما أنت بمصدق ما أنت فيه! وأنت الذي كنت في صغرك مولوعا بصناعة الطيارات الورقية، وبمشاهدة الطائرات في الأجواء وهي تترك خلفها خطوطا بيضاء مستقيمة تظل تتابعها إلى أن تتشوه وتتلاشا. كنت كلما أبصرت طائرة في الأفق تلوح لها بيديك كالمجنون وأنت تقفز، وتحلم بأن يراك ربانها ويرمي لك بشيء جميل، كان ذلك حلما طفوليا بريئا. تفعل ذلك وأنت تردد بأعلى صوتك أنشودة حفظتها في المدرسة لا تذكر منها اليوم غير هذين السطرين:

طيارتي طيارتي هيا ارتقي

متن السماء وحلقي

ها أنت تركب الطائرة وأنت الذي لم تتمكن من تحقيق حلمك الطفولي البسيط الذي لم يكن يتعدى شراء دراجة هوائية. داخل الطائرة لا يشبه داخل أي وسيلة نقل أخرى من التي أعرفها. أحمل بين يدي أشياء لا أعرف لم تصلح؟ أسترق النظر إلى بعض الجيران وأحاول تقليدهم، هذا سناد يوضع على الرقبة، وهذه فوطة، وهذه نظارات للنوم، اكتشفت وظائف هذه الأشياء وجربتها مرات عديدة مختبرا، كطفل يجرب لعبة جديدة أول مرة. بقربي امرأة توزّع العلكة

تـردد أنهـا تقـي دوار الـرأس عنـد الصعـود والهبـوط.

الجلـوس في مقعـد الطائـرة يحـرك بداخـلي شـهوة التذكـر، أتذكـر الطفـل البـدوي الـذي كنتـه، ذلـك الطفـل البسـيط الـذي كان حلمـه لا يتعـدى متعـا بسـيطة، أن يلبـس سروالا جديـدا، ومعطفـا دافئـا، وأن يركـب دراجـة، كـم اجتهـدت في الدراسـة رغبـة في أن أنـال المكافـأة التـي وعـدني أبي، أن يشـتري لي دراجـة.

كان أقـصى أحلامـي أن أمتلـك دراجـة هوائيـة، وكـم عانيـت قبـل أن أتعلـم ركوبهـا، كنـت كلـما أتيحـت لي فرصـة الذهاب إلى السـوق الأسـبوعي، وهـي فرصـة لم تكـن تتـاح لي إلا نـادرا، كلـما تنصلـت مـن مراقبـة أبي وتسـللت إلى إحـدى السـاحات التـي تُكـترى فيهـا الدراجـات، كان صاحبهـا رجـلا فظـا غليظـا، لا يشـبه هـذا الربـان الوسـيم الـودود في شيء أبـدا، أذكـر أنـه يلـف معطفـه عـلى رأسـه اتقـاء الشـمس، ويضـع سـيجارة عنـد أذنـه وأخـرى في فمـه، لا يسـمح لـك بالركـوب قبـل أن تسـلمه النقـود، يقسّـم المضـمار إلى مسـافتين، إحداهـما متوسـطة بدرهـم، والثانيـة طويلـة شـيئا مـا بدرهـم ونصـف، والحقيقـة أنـه لم يكـن يسـمح بإتمـام أي منهـما، فهـو لا يتـورع في مناداتـك بأقبـح الألقـاب قبـل أن تبلـغ علامـة الرجـوع، كنـت أخشـاه، وأخـشى سـطوته وأخـاف غضبـه الـذي لا يغـادر محيـاه. عانيـت في البدايـة، فلـم أكـن أتصـور أننـي سـأقود دراجـة عـلى عجلتـين، وتتحـرك بي في اسـتقامة وتـوازن دون أن أسـقط، أسـترق السـمع والنصائـح مـن بعـض الأطفـال الذيـن يرافقـون بعضهـم، يسـاعد أحدهـم الآخـر: «لا تنظـر عنـد رجليـك، ولكـن انظـر أمامـك، حـرك رجليـك بثبـات...»، كنـت كلـما حاولـت العمـل بهـذه النصيحـة أفلتـت رجـلاي مـدورة نقـل الحركـة فتحتـكان بالسلسـلة وأصـاب بجـرح، لكننـي لم أكـن أبـالي بالـدم المتدفـق ولا بـألم الجـرح، كنـت أعـاود الكـرة وأعاودهـا مـرات ومـرات إلى أن تمكنـت يومـا مـن قيـادة الدراجـة مسـافة لا بـأس بهـا، أحسسـت عندهـا بفخـر كبـير.

كنت كبطل حقق إنجازا فائقا، لقد تمكنت أخيرا من قيادة الدراجة، هذا الشرط الذي كان يتعلل به والدي كلما طالبته بأن يشتري لي واحدة، تحقق اليوم وصار بإمكاني أن أبرهن له أنني قادر على قيادتها كبقية الأطفال والرجال، بعدها صرت مغرما بركوب الدراجات الهوائية، لا أتوانى عن كرائها عند صاحبها رغم بشاعة تصرفاته مع الأطفال.

كنت أشتغل بجد محاولا إرضاء والدي لعله يعطف علي ويحقق أحد أبرز أحلامي، أزاوج بين المدرسة والمسجد وأعمال الفلاحة بكل أنواعها، من حرث وحصاد وغيرهما بحب وتفان. في بعض الأحيان يكون والدي على مزاج حسن فيجدد وعده لي بشراء دراجة، وتبدأ أحلامي تكبر وتكبر، أراني أنزل بها الطريق المائل لا أحرك رجلي، قابضا على مقودها بيد واحدة والرياح تهدهد شعري وأنا أمر من أمام الأبواب والفتيات تسترقن النظر إلي من شقوق الأبواب، وشباب القرية ينظرون إلي بإعجاب، وأعيش هذا الحلم الجميل أياما عديدة، وكلما جاء يوم السبت وذهب أبي إلى السوق الأسبوعي أمنّي نفسي بمفاجأة من العيار الثقيل، أتخيله وقد اشترى الدراجة وجاء بها إلي كمكافأة لي على جدّي ومثابرتي. لكن الحلم يتبخر كلما أبصرته من بعيد عائدا يركب بغله وليس عليه إلا حاجات البيت من السوق.

وأنا أنظر إلى شاشة الإرشادات في الطائرة تذكرت حلمي الثاني، وهو أن نمتلك تلفازا، كنت شغوفا بالتلفاز إلى حد لا يمكن وصفه، كلما أتيحت لي فرصة مشاهدته، وهي نادرة جدا، أجلس مشدوها أمامه فاغرا فمي وعيناي شاخصتان نحوه، أشاهد أي شيء، أي شيء، لا أميز بين نشرة الأخبار، ومباراة في التنس، وإشهار، وفلم ومسلسل، المهم أن أرى الصورة بالأسود والأبيض تتراقص أمام ناظري، كنت أشعر بنشوة كبيرة تغمرني من قدمي إلى ناصيتي، أغيب عن العالم وتتعطل حواسي فلا أستوعب ما حولي. دائما أتوسل أبي أن يسمح لي بزيارة إحدى قريباتنا،

لا لـشيء سـوى لأحظـى بفرصـة مشـاهدة التلفـاز عندهـا، والحقيقـة أنهـا هـي الأخـرى لم يكـن يؤنسـها إلا التلفـاز والأبقـار، فقـد كان زوجهـا شـديد الحـرص لا يسـمح بزيارتهـا إلا لأقـرب النـاس إليهـا. كنـت أشـاركها مـن حـين لآخـر وحدتهـا، وكلـما حالفنـي الحـظ ووجـدت (الباتـري) البطاريـة مشـحونة لأنـه لم يكـن هنـاك كهربـاء، كلـما كانـت سـعادتي أكـبر، كانـت تشـعر برغبتـي الجامحـة في مشـاهدة التلفـاز، فـلا تتأخـر في تشـغيله. وكـم مـرة كنـت سيء الحـظ فأجـد البطاريـة غـير مشـحونة، وكـم مـرة وجدتهـا عـلى وشـك الانتهـاء، فأجلـس إلى التلفـاز أدعـو اللـه أن يمـد في عمرهـا، وسرعـان مـا يظهـر خطـان أسـودان مـن الجانبـين يبـدآن في الاتسـاع، وباتسـاعهما تبـدأ الشاشـة تضيـق إلى أن يعمهـا السـواد، وفجـأة تـرف رفـة أخـيرة، يـكاد ينخـزل لهـا قلبـي.

بعـد مـدة قصـيرة أقلعـت بنـا الطائـرة وصـارت تصعّـد في السـماء، مـا أجمـل التحليـق عاليـا، أغبـط الطيـور عـلى هـذه النعمـة التـي خصهـا بهـا البـاري عـز وجـل، عندمـا اسـتوت الطائـرة في الأجـواء عـلى ارتفـاع يفـوق عـشر كيلومـترات كنـت أنظـر إلى السـطح البعيـد وتـراودني أفـكار سـيئة عـن احتـمال السـقوط المأسـاوي، فـلا يخلصنـي منهـا إلا ذكـر اللـه وترديـد الشـهادة وعبـارة «وأفـوض أمـري إلى اللـه». مـا أعظـم هـذا الإنسـان الـذي اخـترع هـذه الطائـرة، لكـن العظمـة كل العظمـة للخالـق البـاري الـذي خلـق هـذا الإنسـان العظيـم وهـذا الكـون الأعظـم.

الطائـرة ترتفـع ومعـالم الأرض تمّحـي إلى أن تلاشـت وانطمسـت، في البدايـة اختفـى البـشر ثـم تلته الأشـجار والسـيارات والشـاحنات، ثـم المنازل والعـمارات، كلـما صعـدت الطائـرة كلـما تضاءلـت هـذه المخلوقات والأشـياء إلى أن انطمسـت، أدركـت جوابـا لسـؤال ظـل يـراودني: لم لا يعاقـب اللـه هـؤلاء البـشر جـزاء طغيانهـم وتجبرهـم وعيثهـم في الأرض فسـادا وظلمهـم لبعضهـم؟ أدركـت الآن لم ينظـر إليهـم سـبحانه وتعـالى، وهـو المسـتوي عـلى

عرشه من فوق سبع سماوات، بعين عنايته ولواحظ رحمته. مساكين هؤلاء البشر وبؤساء، يحسبون أنهم على شيء، وهم يبدون للواحد القهار - سبحانه - في ضعف وذل وهوان، فكيف لا يرحمهم؟ وكيف لا يشفق عليهم؟ يكفي أن يرسل أحد الكواكب إلى هذه الأرض، رجة واحدة وقضي الأمر. ولكنه سبحانه وتعالى «كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ» تفضلا وتكرما.

على امتداد الرحلة كنت أراقب الشاشة التي تعرض مسار الطائرة خطوة خطوة، اتجهنا صوب مكناس ثم وجدة ثم وصلنا الجزائر، تذكرت صراع الجارين المغرب والجزائر، والحدود المغلقة بإحكام، أحسست بنشوة الانتصار، ها أنا أجتاز حدودكم الأرضية أيها الساسة المتصارعون وأمرّ فوق بلاد الجزائر رغما عنكم، البلاد التي كانت ذات يوم جزءا من المغرب الكبير، كدت أصيح بأعلى صوتي ليتردد في الأجواء ويسمعه ساسة البلدين. أتأمل الخريطة وأركز بصري على جزء منها، لا أدري بم يذكرني، أعتصر ذاكرتي التي تعجل خريفها الذي عصف بأشجار حواضرها وريفها، تذكرت أخيرا، إنها خريطة رأيتها في أحد الكتب المدرسية يقولون إنها خريطة المغرب العربي الحلم المتعثر الذي تأسس منذ 1989 بهدف توحيد الجهود للنهوض بالمنطقة اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا، ولم يتحقق منه شيء إلى الآن، ماذا لو كنا موحدين؟ فوسفاط المغرب وبحره، وفلاحة تونس، وغاز الجزائر، وبترول ليبيا، ومعادن موريطانيا، عندها سنكون قوة اقتصادية يحسب لها حساب، تنافس التجمعات الاقتصادية المشهورة أو على الأقل تكفينا الحاجة لغيرنا. ولكن الخريطة اليوم مخططة بالحدود المعلمة، خطوط بارزة على الورق والشاشة، وسياجات مشوكة على الواقع. خيبة أخرى من خيبات هذه الأمة التي تتوالى في العقود الأخيرة كطالع الشؤم. لم نستطع تحقيق الوحدة على مستوى خمس دول متجاورة، فكيف

سـنحلم بتحقيقهـا عـلى رقعـة جغرافيـة تمتـد مـن المحيـط إلى الخليـج.
أعـاود النظـر، فيضيـق أفـق الأمـل، ويتسـع مـدى الضجـر.

10-استباق شهرزاد أخبار العرب

الطائـرة تـسرع ونحـن الآن فـوق تونـس الخـضراء بـلاد البوعزيـزي، في هـذه اللحظـة تخيلـت شـهرزاد تحـكي.

تقـول الحكايـة التـي نصفهـا مـن وحـي الخيـال ونصفهـا حقيقـة ليـس فيهـا جـدال:

دخلـت دنيـازاد غرفـة نـوم أختهـا فوجدتهـا أمـام مـرآة فضيـة كبـيرة تـسرح شـعرها الأسـود المنسـدل عـلى كتفيهـا، نظـرت إليهـا بتفحـص وقالـت لهـا :

- مـا أجملـك يـا أختـي، إنـك تزدادِيـن جـمالا يومـا بعـد يـوم، وكأن عمـرك يعـود بـك إلى الـوراء ولا يتقـدم بـك كـما يجـري آفتـه عـلى الجميـع.

ابتسمت شهرزاد ابتسامة صغيرة وردت عليها :

- إنـك تبالغـين يـا أختـاه، إن السـير نحـو الشـيخوخة سـنة هـذه الحيـاة، أليسـت في الأخـير هـي نهايـة كل مخلـوق، وبابـا يفـضي بـه إلى المـوت، فهكـذا قضـت حكمـة الخالـق: ضعـف، فقـوة، فضعـف وشـيب. إن البـلى، يـا أختـاه، سـنة قائمـة في مخلوقـات اللـه، فمهـما طال شـباب المـرء وملاحته، ونطقـت بالحسـن ملامحـه، فـلا بـد مـن يـوم يذهـب فيـه رونقـه، ويـدق عظمـه، وييبـس جلـده، وتخذلـه أعضـاؤه؛ يتقـوس غصنـه، ويكـثر غنصـه، ويختـل اعتدالـه، ويشـيب شـعره، فـإذا مـا غـزاه السـيب بوخطـه وخبطـه فإنـه يكـون قـد شـارف عـلى سـاحل الحيـاة كـما يقـال. فطـوبى لمـن كانـت نهايتـه خـير مـن بدايتـه، وختـم بالعمـل الصالـح سـعيه، وخـير منـه مـن أشرقـت، عـلى السـواء، بدايتـه ونهايتـه. ألم تتابعـي معـي كل القصـص التـي رويتهـا لشـهريار كيـف كان أغلبهـا ينتهـي بهـذا المصـير الـذي يبـدأ بالشـيب وينتهـي بهـادم اللـذات؟

الشَّيبُ إحدَى الميتينِ تَقَدَّمَت == إحداهُما وَتَأَخَّرَت إحداهُما
فَكَأَنَّ مَن نَزَلَت بِه أُولاهما == يوْماً فَقَد نَزَلَت بِه أُخراهما

رنت دنيازاد بنظرة إلى السرير، وتقدمت منه ببطء، أخذت مكانها الذي كانت تجلس فيه على امتداد ألف ليلة وليلة، ثم تحسسته كما تتحسس أم فقدت بصرها ملامح ابن لم تره منذ أن كانت مبصرة. ثم أغمضت عينيها وتنهدت بعمق:

- كأنما حدث البارحة فقط، هنا جلست تلك الليلة المشهودة، كان خوف شديد يتملكني، لأن الأفق كان غامضا، لم نكن، لا أنا ولا أنت، متأكدتين من نجاة أي منا، أذكر أنه عندما كنت أسمع جلبتكما على السرير كان قلبي يكاد يبرح حنجرتي، وقد أذرفت دمعا باردا، ثم قهقهت قهقهة خفيفة وتابعت: كم كنت ساذجة، يا لغبائي ظننته يذبحك كما فعل بغيرك، حينها كنت أقول لنفسي: الدور القادم عليك، لكن...

قاطعتها شهرزاد: لكن ماذا؟ أيتها الشيطانة ما أدراك أنت بعلاقة الرجال بالنساء، وأنت لاتزالين صغيرة؟

- لا تنسي يا أختي أنني تلميذتك، وأنني تربيْت معك في بيت واحد وعلى يد رجل واحد، لقد اغتنمت فرصة ذات يوم وأخذت أحد كتبك، كان متخصصا في آداب المعاشرة بين الزوجين، قرأته من أوله إلى آخره، وفهمت كل ما فيه. وعرفت أشياء كثيرة يمنعني الحياء من ذكرها. أليس كذلك يا أختاه، أخبريني أنت صاحبة التجربة؟ فقد عودتني ألا تبخلي علي بأي نوع من المعرفة. ألم تقولي ذات يوم إن الكتب أكثر صدقا من بعض البشر؟

دعتها شهرزاد إليها، وضمتها إلى صدرها، وقالت لها :

- طبعا سأحدثك عن ذلك، إنما ليس الآن، ولكن عندما أرى حاجتك إليه. ثم تابعت:

- تعـالي يـا محبوبـة أختهـا وشريكتهـا في مغامرتهـا، مـا أذكاك! امـرأة محظوظـة مثـلي عليهـا أن تكـثر مـن العمـل الصالـح حمـدا للـه، لأنـه مـنّ عليهـا بأخـت مثلـك، عاشـت معـي محنتـي ومغامـرتي بضرائهـا وسرائهـا، وشـاركتني أكـثر اللحظـات خطـورة. سـامحيني فقـد تسـببت لـك في ألم فظيـع وأنـت لا تزالـين صغـيرة طريـة لا تطيقـين التحمـل.

وبينـما كانتـا متعانقتـين سـمعتا جلبـة خلـف البـاب، بعدهـا نـادت البوابـة، وهـي امـرأة عجـوز عيّنهـا الملـك في هـذه المهمـة الخاصـة بعـد أن أقسـم ألا يدخـل حريمَـه عبـد ذكـر، واشـترطت شـهرزاد، هـي الأخـرى، أن لا تكـون الخادمـة امـرأة شـابة، قالـت البوابـة: أفسـحوا! فسـيدي قـادم إلى غرفتـه. همّـت دنيـازاد بمغـادرة الغرفـة فاسـتبقتها أختهـا :ابقـي معنـا يـا أختـي، فشـهريار المتوحـش الـذي كنـت تعرفـين قـد تغـير، لقـد تـاب عـن غيـه وأصبـح رجـلا آخـر، صالحـا متحـضرا ومؤدبـا، ابقـي وسـترين نتيجـة عمـلي، عفـوا نتيجـة عملينـا أنـا وأنـت، فابتسـمت دنيـازاد ابتسـامة راضيـة بمـا سـمعت.

بعدهـا تنحنـح شـهريار قبـل أن يدخـل، ثـم أحـدث طرقـا خفيفـا عـلى البـاب ونـادى بصـوت خافـت :

- يـا شـقيقة القلـب والـروح، يـا ملكتـي وطبيبتـي، يـا معشـوقتي ويـا حبيبتـي، يـا أرضي ويـا وطنـي، يـا حضنـي الدافـئ ويـا مسـتودع سري، يـا دائي ودوائي، يـا منقـذتي مـن جنـوني وهـتري، هـا قـد عـدت إليـك، عـدت وكلي اشـتياق ولوعـة و...

غمزتـه شـهرزاد وأشـارت إلى دنيـازاد، فـأدرك وجـود ضيـف في البيـت، أمسـك عـن مغازلـة زوجتـه، واتجـه صـوب الشـابة وألقـى عليهـا التحيـة مرحبـا :

- مرحبـا بأخـت زوجتـي، أيهـا القمـر المنـير، لقـد أضـاء بيتنـا بوجـودك، وقـد طـال غيابـك، ألم تشـتاقي إلى هـذا البيـت؟

بادلتـه دنيـازاد تحيـة حـارة وانحنـت أمامـه انحنـاءة تليـق بمقـام الملـوك، فبـدت عليـه سـمات الغضـب، ونهاهـا عـن الانحنـاء قائـلا:

- لا تعـودي لمثـل هـذا، فإنمـا أنـا بـشر مثلـك ومثـل باقـي البـشر، خلـق مـن خلـق اللـه، ولا ركـوع ولا سـجود إلا لـرب البـشر سـبحانه وتعـالى.

اعتـذرت الفتـاة وطلبـت الإذن بالخـروج، لكـن شـهرزاد اسـتمهلتها: أنـت ضيفتنـا الليلـة، ولا بـد أن نسـتعيد أجـواء حياتنـا التـي مضـت.

عندمـا سـمع شـهريار هـذا الـكلام عاودتـه الرغبـة في سـماع الحكايـات فنـط فـوق السريـر مزهـوا كطفـل صغـير، أخـذ مكانـه بجانـب سـيدة الحكايـة، وقـال بصـوت أقـرب إلى التوسـل:

- لا شـك أنـك سـتمتعيننا الليلـة بحكايـة شـيقة مـن تلـك الحكايـات التـي كنـت ترويهـا لنـا خـلال المـدة التـي مضـت، ثـم التفـت إلى دنيـازاد وقـال: لعلـك توافقينـني الـرأي يـا دنيـازاد، فأنـت أيضـا يبـدو في عينيـك الشـوق إلى الحكايـات، فقـصي علينـا يـا راويتنـا مـن عجائـب حكاياتـك، ونـوادر أخبـارك.

هـزت شـهرزاد رأسـها إشـارة بالموافقـة، لكـن موجـة مـن الحـزن ألقـت بزبدهـا عـلى سـاحل وجههـا الفـضي، وفجـأت سـالت دموعهـا البلوريـة عـلى ورد خديهـا فورقتـه خطـوط الكحـل التـي رسـمت أخاديـد شـبيهة بلوحـة فنيـة أبدعتهـا أنامـل رسـام موهـوب.

حـدق شـهريار في وجههـا البهـي وتأملـه: «إنـك تبديـن أكـثر إثـارة في حزنـك هـذا، إن الحـزن لا يزيـد الجميـلات إلا جـمالا، ومـد يـده نحوهـا يريـد أن يضمهـا إليـه، لـولا أنـه انتبـه إلى وجـود دنيـازاد.

أثـار مشـهد الحـزن الـذي ارتسـم عـلى وجـه شـهرزاد كغيمـة خريـف ألقـت عـلى الجـو الحـار لطافتهـا، المسـتمعين، فأدركـت دنيـازاد أن ثمـة أمـرا غـير عـادي، فسـارعت إلى أخـذ مكانهـا تحـت السريـر. لكـن شـهرزاد طلبـت منهـا أن تجلـس عـن يسـارها في الوقـت الـذي كان شـهريار قـد اتخـذ مكانـه

في الجانب الأيمن.

- ما سر هذا الحزن، يا أختاه؟ قالت دنيازاد بعد أن دسّت وجهها في حضن أختها الدافئ.

- لا شك أنها تذكرت حكاية من حكايات الماضين الحزينة، إنها تغيرت كثيرا في الأيام الأخيرة، وأصبحت حساسة مرهفة، أجاب الملك الوديع.

مسحت شهرزاد دموعها واستوت متكئة على الأريكة الحريرية، وقالت بصوتها الدافئ والآسر:

- لقد قصصت عليكم الكثير من حكايات الماضين، حكايات متنوعة منها السعيد ومنها الحزين، وعشنا مع شخصياتها أفراحها وأتراحها، ولكنني لم أبك ليلة بسبب أي حكاية على الرغم من أن بعض الحكايات كانت أكثر حزنا وإيلاما. أما بكائي اليوم فسببه أن ما سأحكيه لم يحدث بعد، إن ما مضى، قد مضى وانتهى على أي حال وكيفما كانت درجة إيلامه، وكل ماض فهو هيّن، لكن ما لم يمض بعد هو الأكثر إيلاما والأكثر تأثيرا.

بدا على دنيازاد وشهريار نوع من التحفز الزائد، وأطرقا صامتين هنيهة قبل أن يتدارك شهريار متعجبا :- ولكن كيف عرفت ذلك؟ ثم التفت إلى دنيازاد مازحا، ها أنت ترين أختك قد تحولت إلى متنبئة، أو لنقل ...

وقبل أن يواصل، حدجته شهرزاد بنظرة شزراء فهم منها رسالة معاتبة فاعتذر قائلا :

- يا شقيقة القلب والروح، لا تنزعجي منّي فأنا أمزح كعادتي، وأنت تعرفين أنني لم أكن بهذا المزاج والمرح لولا تدخلك وعملك على تغيير طباعي، وإني لمعترف لك بهذا الجميل، ولن أنساه ما حييت، ولكن لا بد أن تخبرينا كيف عرفت هذه الحكايات التي لم تحدث بعد.

ظهـرت عـلى وجـه شـهرزاد علامـات الرضـا لهـذا الامتنـان فتصنعـت ابتسـامة صغـيرة ثـم قالـت: إن علـم الغيـب للـه وحـده، (عالِـمُ الْغَيْـبِ فَـلا يُظْهِـرُ عَـلَى غَيْبِـهِ أَحَـدًا إِلا مَـنِ ارْتَـضَى مِـنْ رَسُـولٍ). أنـت تعلـم أن السـنوات التـي قضيتهـا في بيـت والـدي أنفقتهـا كلهـا في معـاشرة الألـف كتـاب وكل مـا قصصتـه عليـك خـلال الألـف ليلـة وليلـة التـي مضـت كان مـن هـذه الكتـب، فأنـا قارئـة قبـل أن أكـون راويـة. وقـد عـثرت ذات يـوم عـلى كتـاب فيـه أحاديـث نبويـة عـن الفتنـة ومسـتقبل الأمـة، فكنـت أتهيـب قراءتـه، فحفظتـه في مـكان خـاص وظللـت أرجـئ قراءتـه، لكننـي يـوم أتممـت قـراءة الكتـب الألـف وبقـي وحـده، أصبـح يفـرض علي نفسـه، فمـن أبوابـه الكـبرى اسـتنبطت حكايـاتي هـذه؛ خطوطهـا الكـبرى طبعـا، أمـا تفصيلاتهـا، فـلا علـم لي بهـا وإنمـا يرويهـا راو شـاهد مـن ذلـك الزمـان لأحفـاده، فالقضيـة، إذن، لا علاقـة لهـا بادعـاء العلـم بالغيـب الـذي رميتنـي بـه- سـامحك اللـه-.

بـدت عليهـما علامـات الوجـل، وأدركا أن المـرأة جـادة فيـما تقـول، فأطرقـا مسـتمعين. قالـت شـهرزاد :

- أيها الملك السعيد، أيتها الأميرة الجميلة!

إن الزمـن المقصـود، بحسـب الـراوي الشـاهد، يسـمونه القـرن الواحـد والعشريـن؛ أي أنـه سـيأتي بعـد حـوالي تسـعة قرون مـن الآن تقريبـا. قاطعها شـهريار عـلى غـير العـادة بعـد أن زالـت بينهـما الكلـف: لعلـه زمـن يفصـل بيننـا وبينـه وقـت طويـل، فهـلا عددتـه لنـا بالليـالي يـا شـهرزاد، فإننـي لا أتقـن الحسـاب بغيرهـا.

هـزت رأسـها موافقـة وبـدأت تحـرك أصابعهـا اليمنـى ثـم اليـسرى، ولأنها كانـت بارعـة في علـم الحسـاب، فإنهـا لم تلبـث إلا قليـلا حتـى قالـت إنـه يعـادل تقريبـا ثلاثمائـة وخمسـة وسـتين ألفـا وتسـعمائة ليلـة.

يـا لـه مـن زمـن طويـل، قـال شـهريار، وأضـاف: لعلـه زمـن سـيعرف

تغيـيرا كبـيرا عـما نعيشـه.

- نعـم، صدقـت أيهـا الملـك السـعيد، في ذلـك الزمـان سـتنقض عـرى الديـن وأولهـا نقضـا الحكـم، كـما أخـبر الرسـول الكريـم. سـتكون البـلاد العربيـة قـد قُسـمت إلى دويـلات، وكل دويلـة يحكمهـا حاكـم إمـا بالعـض، أو الجـبر، أو الوراثـة.

اسـتوقفتها دنيـازاد متوسـلة: هـلا شرحـت لنـا يـا أختـي هـذه المصطلحـات، فـإني أسـمعها لأول مـرة.

نعـم: مـن حقكـم عـلي مسـتمعي الكـرام أن أشرح لكـم كل مـا سـأذكره، لأنـه ينتمـي إلى زمـان غـير زماننـا، فالمُلـك العضـوض هـو الـذي يصيـب النـاس فيـه الظلـم والجـور، والملـك الجـبري هـو الـذي يكـون فيـه عتـو وقهـر. والملـك الـوراثي هـو الـذي يـرث فيـه الحاكـم والـده، قـال ابـن الأثـير في «النهايـة»: «ثـم يكـون ملـك عضـوض» أي: يصيـب الرعيـة فيـه عسـف وظلـم، كأنهـم يُعضـون فيـه عضـا، والعضـوض مـن أبنيـة المبالغـة. وقـال أيضـا: « (ثـم يكـون ملـك وجـبروت) ؛ أي: عتـو وقهـر».

وقبـل أن تواصـل علـق شـهريار: أراك أصبحـت تكشـفين مصـادرك، لم تكـن هـذه عادتـك خـلال الألـف ليلـة وليلـة التـي أمضيناهـا في الاسـتماع إليـك.

هـزت شـهرزاد كتفيهـا معـبرة عـن عـدم اكتراثهـا، ذاك زمـن وهـذا زمـن، لم يعـد هنـاك مـا يخيفنـي بعـد أن حظيـت بثقتـك أيهـا الملـك السـعيد، ثـم واصلـت :

- في ذلـك الزمـان سـيفترق الكتـاب والسـلطان، كـما أخـبر النبـي العدنان، وسـيكون حـكام وأمـراء يقضـون لأنفسـهم مـا لا يقضـون لشـعوبهم، إن أطاعوهـم أضلوهـم وإن عصوهـم قاتلوهـم، وسيسـتشري الظلـم والحيـف، وسـيكثر الهـرج، والهـرج: القتـل. سـيرتقي الأغنيـاء في درجـات الغنـى، ويعيشـون نعيـما وترفـا باذخـين، ويتقهقـر الفقـراء في دركات الفقـر،

ويعيشون الضيق وقلة ذات اليد، سيتحملون كثيرا ويصبرون على الجور طويلا.

هنا سكتت شهرزاد، وتولى الحكي الراوي الشاهد فقال: لكن ذات يوم سيحدث أمر يبدو للوهلة الأولى بسيطا، غير أنه سيكون له تأثير كبير، هذا الأمر سيظل يذكره التاريخ الذي سيأتي فيما بعد، وستتغير بسببه أشياء كثيرة جدا، وسينقسم الدارسون والباحثون حول تقييم هذه التغييرات بين من اعتبرها إيجابية، وبين من اعتبرها وبالا على الشعوب...

قاطعه أحد المستمعين هذه المرة: لقد شوّقتنا أكثر مما ينبغي أيها الراوي، فماذا تنتظر، لا ترجئ تتمة الحكاية إلى أجل قادم، فليس هناك ما يهددك، وما لنا نحن على ذلك من صبر، فهلا كشفت لنا عن هذا الأمر الذي سيكون له كل هذا الأثر؟

هز الراوي الشاهد رأسه موافقا وواصل:

هذا الأمر يا سادتي هو أن أحد الشبان من تونس اسمه «البوعزيزي» سيقوم يوم الجمعة 17 ديسمبر/كانون الأول من عام 2010م بإضرام النار في نفسه أمام مقر ولاية الشرطة احتجاجاً على مصادرة السلطات البلدية في مدينة تسمى «سيدي بوزيد» لعربة متنقلة يبيع عليها الخضار والفواكه لكسب رزقه الذي يعول منه أسرته، لأن سلطات المحافظة رفضت قبول شكوى أراد تقديمها في حق شرطية أعجبت بنفسها أيما إعجاب، بلباسها العسكري وطربوشها الأزرق الذي تطل من تحته خصلات شعرها الأشقر، وجمالها الساحر. كل ذلك جعلها متغطرسة معتدة بنفسها، فلما أمرت هي «البوعزيزي» بالانصراف من الشارع رفقة عربته، وأعلن هو عن رفضه مدافعا عن حقه في العيش الكريم وكسب قوت يومه ليستطيع إعالة أسرته، وباعتباره واحدا من أبناء الشعب، صفعته أمام الملأ وقالت له: بلغة

بنـي الأصفـر: Dégage!

لـو سـمع شـهريار هـذا الـكلام لسـأل متعجبـا: وهـل سـتمتهن النسـاء مهمـة الشرطـة في ذلـك الزمـان؟

نعـم، إنهـن سـيصبحن مثـل الرجـال، سـيمتهن مختلـف المهـن، وسـيزاحمن الرجـال في الأسـواق والمقاهـي، وسـيرتدين مـا شـئن مـن الثيـاب، ويتزيـن بـكل أنـواع الزينـة كـما يحلـو لهـن، كل ذلـك باسـم الحريـة وحقـوق المـرأة، وسـيطالبن بالمسـاواة بينهـن وبـين الرجـال حتـى إنهـن سـيطالبن، في جـرأة غـير مسـبوقة، بتغيـير فـرض اللـه الـذي خصـه لهـن في الإرث مـن نصـف مـيراث الرجـل إلى حصـة مماثلـة لـه، وسـيقلدن نسـاء النصـارى في الملبـس والممـشى.

ولـو صـدر هـذا السـؤال فعـلا عـن شـهريار لجـرّ عليـه وابـلا مـن العتـاب، كانـت سـتقول لـه شـهرزاد: ظننتـك ستسـتنكر فعـل هـذه الشرطية الشـنيع بـدلا مـن أن تتعجـب مـن مهنتهـا، ولكـن يبـدو أنـك لا تـزال مـع تجـبر السـلطة. ولكنـه كان سـيجيبها حينـذاك: لا تنعتينـي بمـا لم يعـد فيّ يـا شـهرزاد، بعـد أن مـنّ اللـه عـلي بالتوبـة والهدايـة.

وسـترد عليـه: العفـو يـا مـولاي، لم أشـك في توبتـك، ولكـن ظننـت أن الشـيطان أعـاد تزيـين سـلوك التجـبر لديـك، وقـد قـال عـلي رضي اللـه عنـه «خفايـا القلـوب تظهـر عـلى فلتـات الألسـن» وهـذا مـا سيسـمونه في ذلـك الزمـان باللاشـعور في علـم جديـد يطلقـون عليـه علـم النفـس.

علـق أحـد المسـتمعين: وهـل كانـت كلمـة «Dégage» لتسـتدعي كل هـذا الإحسـاس بالـذل إلى درجـة إحـراق الـذات؟

قـال الـراوي الشـاهد: إنكـم لا تـدرون تأثـير هـذه الكلمة، فقـد أصبحت فيـما بعـد أيقونـة وشـعارا لثـورة شـعبية عارمـة للإطاحـة بالرئيـس التونـسي في ذلـك الزمـان، وكذلـك شـعارا للثـورات التـي تتابعـت في البلـدان العربيـة مـن بعـد، تعالـت أصـوات الشـعوب: «ارحـل! ارحـل!». إن حـدث إحـراق

البوعزيـزي نفسـه سـيكون بمثابـة الـشرارة التـي أججـت النـار الخامـدة التـي كانـت كامنـة في قلـوب أبنـاء الشـعب الذيـن كادت الدنيـا تضيـق عليهـم بمـا رحبـت لمـا لاقـوه مـن تهميـش واحتقـار وجـور واسـتهتار، فقـد خـرج جمـع غفـير في جنـازة هـذا الشـاب وأقسـموا ألا يعـودوا إلى منازلهـم حتـى يسـترجعوا كرامتـه وقيمتهـم الإنسـانية التـي أحسـوا بأنهـا ضاعـت في ذلـك البلـد، وهكـذا بـدأوا يتجمهـرون يوميـا أمـام مبـاني الحكومـة في جميـع المـدن، وكان شـعارهم الـذي يرددونـه هـو «ارحـل، ارحـل، ارحـل»، وسيشـارك في هـذه الثـورة العـمال والموظفـون في جميـع القطاعـات وسـيتوقفون عـن أعمالهـم، وهـذا مـا يسـمى «العصيـان المـدني»، وستنشـب مواجهـات بـين مئـات مـن الشـبان في منطقـة «سـيدي بوزيـد» وقـوات الأمـن تضامنـا مـع «البوعزيـزي» واحتجاجـا عـلى ارتفـاع نسـبة البطالـة، والتهميـش والإقصـاء في هـذه الولايـة الداخليـة.

وسرعـان مـا سـتتطور الأحـداث إلى اشـتباكات عنيفـة وانتفاضـة شـعبية ستشـمل معظـم مناطـق تونـس احتجاجـاً عـلى أوضـاع البطالـة وغيـاب العدالـة الاجتماعيـة وتفاقـم الفسـاد داخـل دواليـب النظـام الحاكـم. حيـث خـرج السـكان في مسـيرات حاشـدة للمطالبـة بالعمـل وحقـوق المواطنـة والمسـاواة في الفـرص والتنميـة وحقهـم في خـيرات البـلاد. وسـتجبر هـذه الانتفاضـة الرئيـس الـذي كان يحكـم البـلاد بقبضـةٍ حديديـة طيلـة ثـلاث وعشريـن سـنة عـلى التنحـي عـن السـلطة والهـروب مـن البـلاد خِلسـةً إلى دولـة السـعودية في 14 يناير 2011.

وسرعـان مـا سـتنتقل هـذه الثـورة إلى دول أخـرى عربيـة تعيـش الأوضـاع نفسـها لأن أغلـب الحـكام العـرب لهـم عقليـة واحـدة، لا تهمهـم إلا مصالحهـم ومصالـح خدامهـم مـن الأغنيـاء والسياسـين الذيـن يؤازرونهم، هكـذا سـيحدث الـشيء نفسـه في مـصر ثـم في ليبيـا ثـم في اليمـن ثـم في سـوريا.

لـو سـمع شـهريار هـذا الـكلام لقـام في ثلـث الليـل الأخـير يصـلي ركعتـين شـكرا للـه الـذي مـنّ عليـه بالتوبـة فسـاس رعيتـه بالعـدل قبـل فـوات الأوان.

إليكَ إلهَ الخلقِ أرفعُ رغبتي == وإنْ كنتُ يا ذا المنِّ والجودِ مجرمـــا
ولـمَّـا قسا قلبي وضاقتْ مذاهبي == جعلْتُ الرَّجا مني لِعفوكَ سُلَّما
تعاظمني ذنبي فلـمَّـا قرنْتُهُ == بعفوِكَ ربي كانَ عفوُكَ أعظمـا

11- حكاية الربيع العربي

عندما اقتربنا من أجواء ليبيا رأيت خط الرحلة يأخذ منعطفا في اتجاه البحر الأبيض المتوسط، ومنه نحو جزيرة صقلية الإطالية، تذكرت أن الأجواء الليبية كما هو برها غير آمنة، أينعم الغرب على الضفة الأخرى بالأمن ونفتقده، ونحن على أرض واحدة؟ الضفة الأخرى حيث كانت ألسنة النار تتصاعد مخلفة دخانا كثيفا يملأ الأفق، ورائحة الخشب الرطب بملح البحر تزكم الأنوف، وطارق البطل يقوم خطيبا بأعلى صوته: «أيها الناس، أين المَفَرُّ؟ البحرُ من ورائكم، والعدوُّ أمامَكم وليس لكم واللَّهِ إلا الصدقُ والصَبْرُ. واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أَضْيَعُ من الأيتام في مَأْدُبَةِ اللِّئام، وقد اسْتَقْبَلَكم عدوّكم بِجَيْشِهِ وأَسْلِحَتِهِ، وأَقْواتُه موفورةٌ، وأنتم لا وَزَرَ لكم إلا سيوفُكم ولا أقواتَ إلا ما تَسْتَخْلِصُونَه من أيدِي عدوِّكم، وإن امْتَدَّتْ بكم الأيامُ على افتقارِكم ولم تُنْجِزوا لكم أمراً ذهبتْ رِيحُكم، وتَعَوّضَتِ القلوبُ من رُعْبِها منكم الجَرَاءَةَ عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خُذْلانَ هذه العاقبة من أمركم بِمُنَاجَزَةِ هذا الطاغية». انطفأت النار وتحولت إلى أضواء مشعشعة بألوان الطيف، فأصبحت الضفة الأخرى اليوم تنعم بالأمان وبالتطور والازدهار، بينما انتقلت النار إلى الضفة المقابلة وغطى رمادها الأسود مساحات شاسعة، فانتكسنا انتكاسة كبيرة.

انحرفت الطائرة لأن التحليق فوق ليبيا غير آمن، فهي ترزح تحت وطأة الصراع المسلح والدمار، طرف من الجسم العربي يُبتر أو يكاد، لينضاف إلى تشوهات هذا الجسم الذي كتب عليه البلاء وكأنه جسد النبي أيوب عليه السلام، داء استشرى في الشام فعفنها، وقبلها في العراق الذي لايزال في فترة نقاهة تطول وتطول كلما حاول القيام

انتكس، ووباء دمر اليمن بمساعدة من إخوة أعداء، وحتى الأطراف التي بقيت سليمة في الخليج تبدو متباينة ومختلفة يرفض بعضها بعضا كأنها ليست من جسد واحد، ودول أخرى ناضلت فلما أسقطت نظاما فاسدا خلفه آخر لا يقل عنه فسادا.

قال الراوي الشاهد مشخصا الوضع:

في ذلك الزمان ستعيش الشعوب العربية تحت سلطة حكام الجبر، وسيلتهم الوحيدة للدفاع عن كراسيهم، وبقائهم على رأس الهرم هي الحديد والنار. وشعارهم هو «إذا لم يتفق الحاكم والشعب، فغيروا الشعب»، فكان كل من سولت له نفسه مخالفة حاكمه، أو التجرؤ على المسّ بشخصه «المقدس» يطاله التغيير الذي يتخذ أشكالا متعددة على حسب كل حالة، ووفقا لخصوصية كل مرحلة؛ فإما الاحتواء عن طريق عرض المناصب الحساسة، وتقديم العطايا والهبات؛ وإما النفي خارج الوطن، وإما الاختطاف والإخفاء نهائيا، وإما السجن عن طريق تلفيق التهم الجاهزة والمفبركة، وإما النعت بالحمق والجنون، أو «التجنين»؛ وإما التصفية الجسدية بطرق ملتوية؛ بدائل متنوعة صالحة للتعامل مع كل وضع.

وهكذا ظل الحكام - لعقود خلت- يُغيّرون في شعوبهم بالتسلط، والقهر، والاستبداد من خلال الجمع بين السلطة والمال، ويُسخّرون لذلك كل إمكانياتهم بما في ذلك الاستعانة بجهات خارجية. وأما أكبر عون وسند لهم فكان هو الزبانية التي كانت تحيط بهم، هذه البطانة السيئة هي التي تزيّن لهم سوء أعمالهم، وتباركها. كما أنها هي الأخرى استغلت قربها من السلطة فعاثت في الأرض فسادا، وأهلكت الحرث والنسل. والحقيقة أن هؤلاء إنما كانوا يوهمون الحاكم بأنه يلبس أفخم الثياب بينما كان هو يمشي عاريا، ولا أحد يجرؤ على الاستنكار، حتى طلع من تونس فتية صدعوا بالحق، وقالوا: «أيها

الملـك إنـا نـراك عاريـا».

طيـور حـرة اقتربـت مـن فزّاعـة الحاكـم، وحركتهـا فاكتشـفت زيفهـا، وبيّنـت للشـعب بـأن الشـبح الكبـير المخيـف ليـس إلا خيـالا، وأن الطـود الـذي كان يتعاظـم لم يكـن إلا عهنـا منفوشـا هبّـت عليـه ريـاح التغيـير فعبثـت بـه، ونسـفته نسـفا. ولم تلبـث هـذه الطيـور إلا قليـلا حتـى هاجـرت إلى مـصر، ومنهـا إلى اليمـن ثـم ليبيـا فسـوريا، ومـا زال موسـم الهجـرة مسـتمرا نحـو باقـي البلـدان العربيـة.

هكـذا أنصـف التاريـخ، وأقبـل الربيـع العـربي مغـيرا الشـعار السـالف المزيـف إلى الشـعار الحـق «إذا لم يتفـق الشـعب والحاكـم، فغـيروا الحاكم». وانطلـق سـيل التغيـير يجـرف كل عـرش بنـي عـلى الظلـم، والاسـتبداد، والقهـر، فعـادت الكلمـة للشـعب، وأصبـح قـرار التغيـير بيـده، واتخـذ هـذا التغيـير شـكلين اثنـين هـما:

إما أن الشعب يريد إسقاط النظام.

وإما أن الشعب يريد إسقاط الفساد والاستبداد.

وبالفعـل تهـاوت صروح الطغـاة تباعـا، لأن كل مـا بنـي عـلى الباطـل فهـو أهـون مـن بيـت العنكبـوت. ولكـن الفرحـة لم تكتمـل، والربيـع تحـول إلى خريـف قبـل أن يزهـر، لأن الفسـاد كان قـد أرخـى جـذوره وطمـر بـذوره قبـل أن يغـادر، وسرعـان مـا نبتـت الكائنـات الفاسـدة مـن جديـد، واسـتولت عـلى السـلطة. لكـن الشـعوب العربيـة المسـكينة لا زالـت تؤمـن بالتغـير ولسـان حالهـا يقـول معـي:

أقول:

الظّلم لا يطول

بل ينقضي

ويظهر نور الحق

في صحوة العقول

أقول:

لا يُمنع القطر عن الحقول

لا يُمنع الفكر عن العقول

لا يُمنع الحق من الظهور

لا يدوم الليل ولو يطول

منذ صباي

وأرى تعاقب الفصول

آه لو سمع شهريار هذا الكلام لرفع كفيه إلى السماء، وشرع يتمتم بكلمات التضرع مصحوبة بدموع ندية، ولقال: إن معرفة هذه المصائب خفّفت بعض همّي، وخلصتني من تأنيب الضمير الذي بات يقض علي مضجعي منذ أن بصّرتني شهرزاد بعيوبي، كنت أعتقد أن ظلمي لشعبي لا يوازيه ظلم ملك آخر لرعيته، ولكن اليوم اتضح لي أن ما فعلته أهون بكثير مما سيفعله هؤلاء الحكام العرب بشعوبهم فيما سيأتي من الزمان القادم، أسأل ربي أن يقبضني قبل أن يدركني ذلك الزمان. وربما كان سيسأل عن حال بلد اسمه المغرب، كانت شهرزاد في كل حكاياتها تنعته ببلاد العجائب والغرائب.

قال الراوي الشاهد: سيظل المغرب كما وصفت شهرزاد، وسكانه أيضا سيرددون «ما دمت في المغرب فلا تستغرب»، وفيما يتعلق بالتغيير فإنهم سيختارون له الشعار الثاني أي «الشعب يريد إسقاط الفساد» لأن الملكية عندهم خط أحمر. ولكن يبدو أن إسقاط الفساد في المغرب أصعب بكثير من إسقاط النظام في باقي البلاد العربية، فهاكم من خبره:

انطلقت عاصفة التغيير من تونس هوجاء قوية، بعد أن هبت على البلاد ورجّت عرش «الرئيس» رجّا فأسقطته وزبانيته كما تُسقط الأفراخ زغب الحواصل من أعشاشها في أعالي الأغصان، ثم زحف

الإعصار نحو مصر فقاوم رئيسهم مقاومة شديدة وأبان عن استماتة كبيرة، ولكن الإعصار كان أقوى من مقاومته هو ومن يسانده من زبانيته، فوقعوا جميعا في الأسر، وصُفّدوا في السلاسل في مشاهد أشبه ما تكون بالخيال، إذ لا أحد كان يخطر على باله أن تكون نهاية البطل مأساوية بهذا الشكل. إلا أن ما سيحدث في بلاد الفراعنة شيء رهيب، سرعان ما سيقوم العسكر بانقلاب ويستولي على السلطة، ويزج ببعض الذين صنعوا الثورة في غياهب السجون بما فيهم الرئيس المنتخب. ثم شقّ الإعصار طريقه نحو اليمن، ثم ليبيا، ومنها إلى سوريا، غير أن النظام الحاكم في سوريا سيبدي تشبثا بالعرش لا مثيل له، سيدمر سوريا ويشرد سكانها، وتندثر معالمها الثقافية والتراثية، ولن يأبه لشيء من ذلك.

هذا الإعصار لم يصل المغرب، ولكن اكتفى بإرسال هبّة خفيفة إليه، داعبت المسؤولين مداعبة لطيفة، وتوقعت على إثرها أرصادهم إمكانية انعكاس اتجاه الرياح، فأحسّوا بالخطر يحدق بهم، فسارعوا إلى استباق الربيع عبر سياسة المداراة، سياسة شبيهة بترديد الأنشودة الشعبية المشهورة «نيني يا مومو حتى يطيب عشانا..» (أغنية ترددها الأمهات الفقيرات لأطفالهن حتى يداعبهم النوم: «نم يا بني ريثما ينضج عشاءنا، وإن لم ينضج نضج عشاء جيراننا»). وظل الشعب ينتظر فلم ينضج عشاؤه ولا عشاء جيرانه. أعلن الملك عن اقتراح لتعديل الدستور، مشروع تعديل الدستور هذا نُفخ فيه وحُوّل من تعديل إلى تغيير، وطبّلت له بعض الأحزاب التي تجاوزها التاريخ في لحظة غفلة من أمرها، وسارعت بعض وسائل الإعلام الرسمية إلى بث برامجها المباشرة لمناقشة الدستور المرتقب، فكان بعض ممن ينعتون بالخبراء الاستراتيجيين يثنون على هذا التغيير ويثمنونه وينفخون فيه، والحقيقة أن هؤلاء لم يكن يعنيهم غير نيل رضا النظام، والذي كانوا يدورون

معه حيث دار، ولا يتورعون في تغيير مواقفهم بين عشية وضحاها كما تغير الأفاعي جلودها.

كان ذلك يحدث موازاة مع استمرار الضغوطات، وظهور حراك كبير في الشوارع المغربية، قادته حركة تغييرية أطلق عليها حركة 20 فبراير جمعت كل الأطياف الشعبية من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار؛ إسلاميين ويساريين، كانت الحركة تجدد مظاهراتها واحتجاجاتها نهاية كل أسبوع في الشوارع والساحات العمومية ترفع شعارات قوية منها:

لا حقوق لا قوانين = باش حنا مواطنين = مغاربة فكل مكان = كرامتهم ما تتهان = يا شعبي كانبغيك = و بدمي غانفديك = عيشت الذل ما رضيتها ليك!!

سجل سجل يا مخبر= و ارفع تقرير = النظام في المغرب حاضي الفقير.

يا مخزن يا جبان = شعب المغرب لا يهان

جماهير جماهير وتحية للجماهير= الأنظمة العربية أنظمة بوليسية = جماهير جماهير وتحية للجماهير= الأنظمة العربية أنظمة استبدادية

ناضل يا مناضل = من أجل الحرية = ناضل من أجل الكرامة = ناضل ضد الاحتقار= ناضل ضد الاستبداد ناضل = ضد الاختلاس = ناضل ضد الاستغلال

وظلت الحناجر تهتف بحماس متزايد، وتصعّد من لهجة الاحتجاج، وصارت تنادي علانية برحيل بعض الأسماء المتغلغلة في النظام ناعتة إياها بالفساد، تحت شعار «فلان(باسمه الشخصي).. ارحل». تزامن ذلك مع اقتراب مهرجان غنائي عالمي يُقام في العاصمة الرباط، تنفق عليه أموال طائلة تنفع في بناء مشاريع ضخمة تعود بالنفع العميم على البلاد والعباد، كان الحراك يدعو إلى إلغاء هذا المهرجان، ولكن المسؤولين أسروا على أن يتحدوا أولئك الذين نُعتوا بـ»الرجعيين والمتخلفين» المناهضين لمهرجان الثقافات العالمية الكبير»موازين»، لأن

المسؤولين رأوا فيه ما لم يره فيه غيرهم، فأسروا على إنفاذه رغم اشتداد موجة الغضب الشعبي.

في هذه البلاد جهاز ذكي يتحكم في كل شيء يدعونه المخزن، استطاع أن يمتص رياح الربيع العربي القوية ويحولها إلى نسيم وديع، فقد سارع إلى تنظيم انتخابات أتقن إخراجها، فاز فيها حزب (إسلامي)، كانت الرسالة ضمنية تقول: أيها الشعب الثمل بخمرة التغيير، إذا كانت الدول العربية الأخرى ثارت، وعندما أعطيت فرصة الاختيار الديمقراطي اختارت القوى الإسلامية باعتبارها آخر حبل كانت لاتزال بعض الآمال معقودة عليه، فأنا سأكفيكم كل هذا العناء، تريدون إسلاميين؟ سيأتونكم بطريقة ديمقراطية سلمية، هكذا كان التدبير السياسي للمرحلة، فقد وقف الربيع المغربي عند تلك الحدود، حدود إيجابية من حيث أن البلد «خرج من عنق الزجاجة» كما يحلو للبعض أن يعبر، وتجنب الفوضى ووقاه الله الفتن التي تخبطت فيها دول أخرى، لكنها سلبية من جهة ما تحقق، إذ يرى البعض ألا شيء تغير، وحتى الذين لا ينكرون التغيير يرون أن حجمه لم يرق إلى مستوى تطلعاتهم وآمالهم، هكذا تحول الربيع العربي إلى خريف بنيّ باهت أسقط أوراق شجرة الأمل التي سرعان ما بدأت تذبل. هنا توقف الراوي الشاهد.

عدت أنا أنظر إلى الخريطة العربية على شاشة الإرشادات، بدت لي كأنها جسم متجمد هامد وضعه مشرح قاسي القلب على طاولة وصار يعبث به متشفيا، يشرّحه بمشراط حاد وفق هواه؛ حدود بارزة، بخطوط عريضة، لا شك أنها مكتظة بالجنود المدججين بالأسلحة، يراقبون الإخوة الأعداء، وربما يتبادلون أحيانا إطلاق النار، يرابطون هناك حيث لا تنبغي المرابطة، ويتركون ثغر المرابطة الحقيقي شاغرا هناك، في فلسطين، حيث الصهاينة يستعرضون قواهم، يقتلون، ويعتقلون، ويهجّرون كما يحلو لهم.

وحده هذا الكائن الطائر الذي يقلنا قادر على اختراق تلك الحدود المحصنة، ماذا لو أن الوطن العربي صار واحدا موحدا؟ ماذا لو صرنا بجنسية واحدة، وألغيت الحدود، وبتنا في وطن واحد من الخليج إلى المحيط، ولم نعد في حاجة إلى جوازات وتأشيرات نتنقل كما نشاء، وأصبحنا نشترك كل شيء، ونقتسم الخيرات، وعشنا في أمان، و..و..و... حلم بدا لي بعيدا كنقطة ضوء خافتة تتلاشى في الأفق عندما تحسست جوازي الحامل لتأشيرة العبور في جيبي.

استعاد الراوي الشاهد الكلام، ثم واصل بأسلوب ساخر لا يخلو من تذمر هذه المرة فقال:

في عام 2011 سوف تنظم النسخة الأولى من مسابقة فريدة من نوعها، هذه المسابقة تستمد تميزها من نوع الفئة المشاركة فيها، وهي فئة الحكام العرب، والمسابقة بعنوان «من سيقتل المليون؟» قياسا على مسابقة كانت مشهورة حينها وهي «من سيربح المليون». هذا هو التحدي الذي رفعه الحكام العرب أمام تعنت الشعوب، فقد كانت شعوبهم تحاول تغييرهم وزعزعة استقرارهم من على عروشهم، وهذا ما لم يرق لهم. وسيأتي قرار مشاركة الحكام العرب في هذه المسابقة بعد كثير من المشاورات السرية، بخصوص الوفاء للشعار الذي تعاهدوا عليه وعلى عدم مخالفته منذ القديم، خصوصا بعدما ظهر عدم الاتفاق بين الحكام والشعوب، وأعربت هذه الأخيرة عن رغبتها في تغيير الحكام. هذا الشعار كما ذكرنا هو « إذا لم يتفق الشعب مع الحاكم، فغيروا الشعب». ومن المعلوم أنه صاغه الحكام العرب نتيجة إصابتهم بمرض وراثي خطير ينتقل عبر الجينات، فقد تطور الطب واكتشفت آلات متطورة بشكل كبير تضاهي عقل الإنسان الذكي، تستطيع تحليل الدم والكشف عن أكثر الأمراض خطورة وغموضا، أثبتت تجارب علمية أجريت على خلايا الدماغ عند إحدى العائلات

العربيـة الحاكمـة وجـود 24 زوجـا مـن الصبغيـات في خلايـا هـؤلاء؛ أي زيـادة زوج مـن الصبغيـات عـلى العـدد المعـروف لـدى الإنسـان العـادي وهـو 23 زوجـا. وبعـد اسـتئصال هـذا الـزوج مـن الصبغيـات عنـد أحـد الحـكام بعـد التحايـل عليـه وتخديـره قـام فحطـم الكـرسي، وجلـس عـلى الحصـير، وأعـرب عـن رغبتـه بالتـبرع بـكل مـا يملـك لخزينـة الدولـة، ليتضـح مـن خـلال ذلـك، أن هـؤلاء الحـكام يعانـون مـن مـرض «حـب الكـرسي» نتيجـة وجـود هـذا الـزوج مـن الصبغيـات. وتجـدر الإشـارة إلى أن الحـكام العـرب لم يكـن لهـم أي اسـتعداد للخضـوع لعمليـات جراحيـة لاسـتئصال هـذا الجـين المسـؤول عـن المـرض، لأنهـم يجزمـون بـأن نسـبة نجـاح هـذا النـوع مـن العمليـات ضئيلـة إن لم تكـن منعدمـة، ونتيجتـه تكـون كارثيـة، وبالتـالي فهـم يفضلـون أن يبقـوا عـلى هـذا الـداء لأنهـم يسـتطيعون التعايـش معـه، بينـما تتجـرع آلامـه شـعوبهم.

خـاض الحـكام العـرب غـمار المسـابقة وكلهـم حـماس، فجنـد كل واحـد منهـم رجـال أمنـه ودججهـم بشـتى أنـواع السـلاح، وأخـرج دباباتـه وصوبهـا نحـو صـدور أبنـاء الشـعب المتظاهريـن الذيـن لم يكـن لهـم سـلاح سـوى سـلاح الكلمـة، ورفـع الصـوت: «ارفـع الصـوت! ارفـع الصـوت!، الـلي يهتـف مـا بيمـوت». وتجـدر الإشـارة إلى أن أول مـن أخـذ المبـادرة منهـم خـسر الرهـان رغـم اسـتعانته بـكل المسـاعدات التـي يتيحهـا قانـون المسـابقة؛ فقـد اسـتعان في البدايـة بحـذف خمسـين بالمائـة مـن الأجوبـة، حيـث راهن عـلى التفرقـة بـين المتحرريـن والإسـلاميين «الظلاميـن» حسـب زعمـه، لكـن اختيـاره الجـواب الأول لم يشـفع لـه، لأن الفئتـين اتحدتـا ولم يعـد بالإمـكان التفرقـة بينهـما، ثـم لجـأ في المسـاعدة الثانيـة إلى الجيـش، لكـن هـذا الأخـير لم يقـدم لـه الجـواب الصحيـح، فوجـد نفسـه أمـام آخـر مسـاعدة، وهـي الاتصـال بصديـق، وبعـد محـاولات عديـدة، لقـي جوابـا مـن صديـق أمّـن لـه الحفـاظ عـلى جـزء مهـم مـن المبالـغ التـي راهـن بهـا في المسـابقة.

وبالتالي يكون أول المتسابقين قد انسحب من المسابقة دون خسارة، لا سيما بعدما هربت عقيلته أطنانا من الذهب معها.

ثم جاء دور المتسابق الثاني، الذي دخل غمار المسابقة وكله أمل في تحقيق الحلم، لكنه وجد نفسه مضطرا للاستعانة بالمساعدة الوحيدة التي كانت متاحة له، وهي البلطجية، لكنها لم تفلح إلا في قتل القليل من المتظاهرين، ليجد نفسه خاسرا لكل ما راهن به في المسابقة. ثم جاء دور الثالث، الذي ظل يتشبث بآخر أمل في البقاء في المنافسة، لا سيما بعدما أصبح بين خيارين لا ثالث لهما؛ إما الانسحاب دون خسارة، وإما المقامرة التي لا تُعرف عواقبها. ثم دخل السباق اثنان من الحكام الأشداء؛ أولهما تقدم كثيرا نحو تحقيق الرهان، لأنه يتميز بنفسية مزاجية، ويستعين بمرتزقة ينظرون إلى البشر كما ينظرون إلى الذباب، لكن نهايته كانت مأساوية، والثاني أبان منذ البداية عن استعداد كبير للمنافسة على اللقب، لا سيما وأنه لقي دعما كبيرا من جهات أجنبية، واستعمل الأسلحة الكيماوية، وأن آلات قتله حصدت الآلاف، وشردت مثلهم، فقد قدّر «المرصد السوري لحقوق الإنسان»، وهو مجموعة رصد مقرها المملكة المتحدة، أن عدد القتلى منذ بداية الحرب وصل إلى 511 ألف حتى مارس/آذار 2018. خلفت سنوات من القتال المستمر 6.6 مليون نازح داخلي و5.6 مليون لاجئ في جميع أنحاء العالم، وفقا لـ «المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين».

هذا ويذكر أن هؤلاء الشجعان أمام شعوبهم والجبناء أمام إسرائيل، يتلقون الدعم المادي من بعض الدول الغربية، والمعنوي من باقي الحكام العرب -الذين لم يخوضوا غمار المسابقة بعد- متمثلا في خالص الدعاء في الخلوات لهم بالنصر حتى تحقيق الغاية وبلوغ المراد.

وفي الختام تجدر الإشارة إلى أن باب المشاركة في المسابقة ما

زال مفتوحا أمام بقية الحكام الذين اجتازوا بنجاح مسابقة الدور التمهيدي المتمثلة في «تشريد المليون».هذا، ويتابع الرأي الدولي أطوار المسابقة بشيء من الحذر والتريث، منتظرا لما ستسفر عنه الجولات القادمة من المنافسة التي قد تسفر عن متسابقين جدد. ومكتفيا بدور المتفرج على باقي الحكام، مع العمل على تحريك القضية كلما أوشكت أن تهمد لضمان مزيد من التشويق في المنافسة، ولتمديد مدة المسابقة إلى أجل غير مسمى.

أكاد أجزم أن شهريار لو استمع إلى هذه الحكاية لاغرورقت عيناه، ولقالت له شهرزاد مطمئنة: لا خوف عليك يا ملكي، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له، وربي يقبل التوبة، وأنت الآن تعمل جاهدا على إصلاح ما أفسدت فيما مضى بعدلك وإحسانك إلى رعيتك.

ولكن شهريار كان سينفجر باكيا في حضنها: لا يكفي يا حبيبتي! لا يكفي! إني أتعذب على الدوام، ولولا تسليتك وروح الأمل التي تبعثينها فيّ لكنت وضعت حدا لحياتي، فمثلي لا يستحق أن يعيش، أحيانا أحدث نفسي بأن أجهز ساحة القصر وأفتحه للعموم، ثم آمر مساعدي فيجمعون لي كل من لحقهم من ظلمي شيئ، ثم يشدون وثاقي في وسط الساحة ويتيحون لهم كل وسائل الضرب والقتل والفتك ويتركونهم يفعلون بي ما يشاؤون، لعلني أتطهر من هذا العذاب الذي يقض مضجعي. لكنني كيف سأقابل كل اللواتي واللذين ظلمتهم؟ كيف يا شهرزاد؟

أتخيل شهرزاد ستمسح دموعه، وتقول له: تعوّذ بالله، فندمك هذا توبة، وما عليك سوى الإكثار من فعل الخير ولا سيما إلى أهل المقتولات والمظلومين، فالحسنات يذهبن السيئات، والله يغفر الذنوب جميعا عدا الشرك. وأبشرك بهذه الآية التي تبيّن بجلاء عفو الرحمان وكرمه ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ

سَـيِّئَاتِهِمْ حَسَـنَاتٍ وَكَانَ اللَّـهُ غَفُـورًا رَّحِيـمًا). قـم فهـذا أوان قيـام الليـل فـرب العـزة يناديـك، يفتـح لـك بابـه ليعطيـك. واصرف للنـاس بـرك، يـزل ذلـك كربـك، فـإن الـذي مـضى قـد فـات، ولكـن الأحيـاء هـم محـل تجارتـك، فلتحسـن إليهـم ولتكرمهـم، فذلـك قمـن أن يشـفع لـك، وقـد قـال الفضيـل بـن عيـاض لرجـل أصابـه مـا حـل بـك مـن انقبـاض: «اتـق اللـه فيـما بقـي مـن عمـرك، يغفـر اللـه لـك مـا قـد مـضى».

12- بابا لا تمت!

حينما عرجت بنا الطائرة متفادية أجواء ليبيا اقتربت من النافذة وأرسلت نظري على صفحة البحر الأبيض المتوسط، أحدق في زرقة الماء البعيدة، أسترجع تفاصيل غرق مركب يضيق بمن فيه من نساء ورجال، وبينهم أطفال ورضع، تتهادى به الأمواج، يتمسكون ببعضهم، وأصوات البكاء والرعب يمتصها هدير الموج الغاضب فتتبدد دون أن يسمعها أحد، يمسكون بيد ويلوّحون بأخرى إلى غير اتجاه يطلبون النجدة من الفراغ، يصيحون بأعلى أصواتهم، واغوثاه واغوثاه! ولكن حناجرهم بحت وأصوات نجدتهم تكسرت في أعماق البحر. رأيتهم تشبثوا وتشبثوا ولكن الأمواج لم تكن رحيمة بهم، تعانقوا وأذرفوا دموعا طغت ملوحتها على ملوحة رذاذ البحر، تودعوا الوداع الأخير، كانت إبهامات بعضهم تظهر من حين لآخر تشير إلى الشهادة، أصواتهم تتعالى وأفواههم تضخ المياه. مشهد مثير لرجل يتمسك بابنيه يقاوم بأقصى جهده ويحاول مساعدتهما ومساعدة زوجته على التنفس وتفادي الغرق بعد انقلاب المركب، كانوا يتمسكون به وهو يقاوم من أجل البقاء على السطح، يحثهم على التنفس. فجأة خارت قواه فبدأت الأمواج تدفعهم إلى الأسفل، كان يقبض على الطفلين بيديه، ويحاول بكل قوته دفعهم جميعا إلى أعلى ليتنفسوا وهما يصرخان بصوت مبحوح:

- بابا لا تمت وتتركنا، ماما! أين أنت ماما؟

واختلطت ميم الماما بالماء، فلونته بلون الكآبة السوداء، وبعد حركة مضطربة شبيهة برقصة الديك المذبوح نشر أحد الطفلين يديه محتضنا الموج كقشة تطفو على السطح، أنقذته موجة رحيمة من

أنياب الحوت المفترس، وحملته أخيرا على إيقاع مهدهد إلى الشاطئ؛ هناك حيث بدا في وضعه الذي هز العالم، كان مكبا على وجهه يحتضن الرمال، ربما ظن أنه يحتضن صدر أمه الحنون، شيّعته أسماك البحر، وعادت تلعن من كان سبب محنته. بينما أقبلت ملائكة الرحمة تحتضنه وتهدهده: نم يا صغيري نم، نم يا «حامل راية النصر»، آن لك أن ترتاح من آلام هذا العالم القاسي، وترتاح راحتك الأبدية، وحينما حلقت الملائكة تخيلته يحلق معها بجناحين من نور. ثم تعالت الأصوات الشجية للفرقة الفلسطينية:

«لقيونى ع الشط نايم، لا تصحينى مش رح تقدر، ما لعالم نايم».

«سرقني الخوف، من إمي، وملح البحر أكل مني، وصار الموج يحذفني، ويبعدني»

«لقيونى ع الشط نايم، لا تصحينى مش رح تقدر، ما لعالم نايم».

لِمِثْلِ هذا يذوبُ القلبُ من كَمَدٍ == إنْ كان فى القلبِ إسلامٌ وإيمانُ

أجل يا أيها العالم النائم متى تستيقظ؟ يا أيها الإنسان الذي فقد إنسانيته متى تسترجعها؟ يا أيها المغرور بحياة فانية متى تفيق من غفلتك؟ يا أيها المتجبر الطاغي كيف تغفل عن نهايتك؟ أما تعي أن العمر مهما طال قصير، ومهما عمرت فإلى الله المصير، فإلى متى ستظل تغالط نفسك؟ أنّى لك أيها المجرم أن تذوق طعم الراحة، أنّى لك أيها الحاكم الجبار أن تنعم بالسعادة وأرواح الأبرياء تطاردك كنذير شؤم ونحس.

13- سلام عليك يا عمان

وصلنا مطار الملكة علياء بعمان ليلا، استقبلنا الإخوة الأردنيون في بوابة الدخول فرحين، هنأونا بمشاركتنا في أول رحلة، ووزعوا علينا بعض الهدايا، كانت فرحتنا كبيرة، شكرناهم وأخذنا معهم صورا تذكارية. لحسن حظنا اجتزنا هناك حاجزا أمنيا واحدا، مررت بشاب يرتدي بدلة شرطة زرقاء، كان وسيما وابتسامته لا تفارقه، سألني عن اسمي ووجهتي بلطف، ورحب بي ثم سلمني جوازي. يا الله لك الحمد! فقد كفيتنا إجراءات التفتيش القاسية التي مررنا بها في المغرب الفريد. خرجنا من المطار نردد في أنفسنا عبارات الحمد. ركبنا سيارة أجرة وتوجهنا إلى فندق سدين في منطقة خلدا، عندما أوصلنا السائق، وهو شاب في مقتبل العمر بشوش وصموت، سألناه عن تكلفة النقل بالدولار، فلم يعرف مقدارها، وبقينا مدة ليست بالقصيرة نجري تحويلات العملة، كان الشاب أشد حرصا في الحساب، قال لنا: من العيب أن آخذ منكم أكثر مما أستحق، وأنا لا أطلب غير الحلال. كانت هذه أول إشارة إيجابية نلتقطها بخصوص إخوتنا في الأردن، ما أجمل القناعة والورع! سربالان يرفعان المرأ أعلى عليين، ويبلغان به مراتب المفلحين، فما أحوج مسؤولينا إليهما.

كان التعب قد نال منا حظه الأوفر، لم أعلّق على عامل الاستقبال في الفندق حين أخبرنا بأننا سنفترق في الغرف، عبد الرحيم وإدريس في غرفة، وأنا في غرفة أخرى سبقني إليها باحث من الجزائر. كانت معي البطاقة الإلكترونية لفتح الغرفة، ولكنني بدوي قح آثرت أن أدق الباب تأدبا، وجدت صاحبي لايزال مستيقظا، قام وعانقني وكأننا نعرف بعضنا، اكتفينا بتعارف بسيط، ثم صليت المغرب والعشاء جمع

تأخير وقصر، وارتميت في نوم هادئ. ورغم العياء الذي بلغ مني مبلغه فقد أيقظني في الصباح الباكر صوت الأذان يتردد صداه في مدينة عمان النائمة، كان الظلام لايزال يخلع عليها بردته، ما أجمل الأذان بصوت المشارقة، أصوات رقيقة دافئة ترتفع تباعا وكأنما بعضها يرجع صدى البعض الآخر، آخرها وصولا إلى مسمعك ينفذ إلى أعماقك، يداعب شغاف قلبك، يحملك إلى عالم الملكوت، قوت للنفوس وأي قوت، يخلص روحك من قبضة جسدك الترابي المتكاسل، يحلق بك في حضرة الله رب الفلق، فتستشعر عناية رب الكون وقد أذن لعباده بيوم جديد، لا يطلب منهم شيئا غير أن يستهلوه بتسبيحه وبالتسامح والغفران فيما بينهم، وهو يتكلف لهم بكل شيء، تعلم أنه فوقهم يراقبهم عن قرب لا يعزب عنه مثقال ذرة، فتطمئن نفسك وتسكن، تزول كل مخاوفك وهواجسك، فللكون مدبر حكيم، رب رحيم، أمره بين الكاف والنون، أرحم بعباده من الأم برضيعها، وله سبحانه المثل الأعلى. اقتربت من النافذة وأزحت الستارة، خلف زجاجها أضواء المدينة تتلألأ كنجوم السماء، وعبر الشقوق يتسلل هواء عليل، رطب ينعش الروح، صدق من قال إنه كذلك لأنه يكون خال من أنفاس المنافقين. سلام عليك يا عمان ولتنعمي بالسلام.

بعد الصلاة اتكأت في فراشي أسبح الله تعالى، رنّ الهاتف فلم أجب، وأنّى لي ذلك وأنا الذي لا يفقه في هذه الأمور شيئا، استيقظ صديقي الجزائري متضجرا، وأجاب بصوت النائم: ألوه (بنبرة جزائرية ترقق اللام والهاء)، لم أسمع من حدّثه، لكنه عندما ردّ: «حاضر سيدي سننزل حالا»، فهمت أن المتصل عون النزل. قام صديقي متعجلا دخل الحمام فخرج فصلى الصبح، وارتدينا ملابسنا ثم نزلنا إلى المطعم لتناول وجبة الفطور. مولود صديقي في الغرفة إنسان طيب دائم الابتسامة، حسن البشر، جميل المعشر، كانت فرحته بتنحي بوتفليقة كبيرة لم يفسدها

عليه سوى توجسه من الآتي، هكذا مصير الشعوب العربية المسكينة، تناضل وتناضل من أجل الإطاحة بدكتاتور، لكنها لا تضمن أن يخلفه من هو أقل منه ديكتاتورية، ولنا في الربيع الذي تحول إلى خريف قبل أن تتفتح أزهاره مثال واضح، أمة قدرها الألم، والذلة بين باقي الأمم.

وجدنا إخوتنا الأردنيين في استقبالنا، حضر مجموعة يرأسهم الدكتور عمر العموش بنفسه، رجل طيب ودود متواضع، كان يتواصل معنا على الدوام قبل المؤتمر ويجيب عن كل صغيرة وكبيرة، عجبت كيف يحفظ اسمي عن ظهر قلب، رحبوا بنا كثيرا، وطلبوا منا صعود الحافلتين لننطلق نحو جامعة الطفيلة، بعد أن تناولنا وجبة فطور مكتملة.

14- من عمان إلى الطفيلة

كانت المسافة طويلة، بجانبي باحثون من الجزائر وفلسطين والأردن يتبادلون التعارف وأطراف الحديث على عادة اللقاء الأول، أما أنا فاتخذت مكانا منفردا في الخلف، كنت فاقدا للأبجدية، قلبي تائه، وعقلي منخطف، عيناي تمسحان جانب الطريق، تحرثان الأفق ذهابا وجيئة، أبحث عن شيء لا أراه، شيء أحسه قريبا، شيء أشم رائحته، شيء أرى طيفه، على مرمى حجر؛ فلسطين طرف الجسم الضائع المبثور، فلسطين بقدسها مسرى النبي الحبيب، وأولى القبلتين، الجرح الذي ينزف، فلسطين التي ضاعت وضعنا معها جميعا، واهمون أولئك القابعون في أوطانهم والمنعّمون في عروشهم الظانون أنهم لم يضيعوا. لست أدري كم استغرقنا من وقت فقد كنت خارج حدود الزمن.

تذكرت كم من القمم العربية المفتوحة والمغلقة التي تحولت كلها إلى سفوح، يجتمعون في قاعات فاخرة مكيفة ومجهزة بأحدث وسائل الراحة، يرتدون الحرير والديباج، آثار النعم عليهم سارية، وجوه ناعمة وبطون بادية، يأكلون أشهى أنواع الطعام، ويشربون ألذ الشراب، ثم يقضون السهرات الحمراء وغير الحمراء، ويتفرقون دون أن يحققوا أي شيء، ماذا قدموا للقضية الفلسطينية؟

في كل مرة يجتمعون ويتفرقون، والفلسطينيون يموتون، والفلسطينيون يرحّلون، والفلسطينيون يجوّعون والفلسطينيون يفقّرون. لو أنهم ما اجتمعوا وأرسلوا تكاليف اجتماعاتهم «الخاوية» مساعدات إلى الفلسطينيين لكان خيرا لهم وأقوم. ولكنهم قوم عشقوا التمثيل والمسرح. يحضرني جواب التلميذ البريء حينما سأله الأستاذ أي البلاد أبعد؟ فأجاب: فلسطين يا أستاذ! كان على حق، فمنذ زمان والعرب

يهتفون: نحن قادمون يا فلسطين، لكنهم لم يصلوا بعد، وما أظنهم يصلون. أين أنت يا عمر، وأين نجدتك يا معتصم، لم يبق أمامنا سوى الأماني البعيدة، قال فاقد للأمل في العرب مثلي: «لو سمع عمر صرخة طفل مجهود، أبوه مفقود، وأخوه في القيود، لجنَّد الجنود، ولداس اليهود. لو طرقت سمع المعتصم وا أماه، لضاقت أرضه وسماه، ولقاد الكماة، ولأخرج فلسطين من زنزانة الطغاة البغاة، خمسون عاما ونحن نرى أيتاما، ونشاهد أيامى، ونبصر آلاما، ثم نتعامى» (تذكير النفس بحديث القدس لسيد حسين العفاني).

وصلنا جامعة الطفيلة، استقبلنا أساتذة وطلبة بشوشون، مؤدبون، لا تكاد تسمع أصواتهم الخافتة والهادئة حتى تقترب منهم، ما أطيب أهل الأردن، ينصتون إلى حديثك، فلا يقاطعونك، ولا يحدثونك إلا بمقدار، وهم أهل المحل والدار، فإذا خلوت بأحدهم أعرب لك عما يجيش في صدره، ويجول في خلده، من أحزان وآلام على واقع البلد وعلى القضية الفلسطينية وعلى واقع الأمة العربية جمعاء، إحساس نتشاركه نحن الشعوب العربية جميعا، تحس بوقع الضغوط التي تمارس على الملك عبد الله بسبب وصايته على القدس تجثم على كل القلوب، جروح تنزف تؤلم توخز ينفطر لها قلبك كمدا، لا يخفف من وقعها غير لحظات يسرقونها من هذا الزمن الفاجع.

استقبلونا في قاعة فسيحة، وضعنا أمتعتنا واسترحنا ننتظر أدوارنا لأداء تكاليف الندوة (إيواء وإطعام وجولات سياحية)، دار نقاش بين الشخص الذي كان يستخلص المبالغ وبين بعض الباحثين من الجزائر حول قيمة المبلغ، لأنهم لم تكن معهم عملة الدولار التي حدد سعرها من قبل، وإنما كان معهم الأورو. وصلوا إلى اتفاق بعد اتصالات خارجية تعرفوا من خلالها سومة الأورو. أتابع الأمر وقلبي يعتصر ألما، أشخاص عرب من بلدين عربيين يتعاملون بعملات أجنبية، يا الله! ما هذا؟

ولا يعـرف أحدهـم عملـة الآخـر الوطنيـة، أي اغـتراب وأي اسـتلاب، مـا الـذي حـل بكـم أيهـا العـرب العـراب؟

حينهـا كنـت أفكـر في هـذا الجديـد المسـتحدث، نـدوات مـؤدى عنهـا، بعدمـا تخلـت السياسـات الماليـة الجامعيـة عـن دعـم النـدوات. ربمـا تكـون حـلا أمثـل في ظـل غيـاب الدعـم الموجـه للجامعـات، ولكنهـا مـن جهـة أخـرى تشـكل مدخـلا سـلبيا، ففـي الغالـب كل مـن يسـتطيع الدفـع يُسـتدعى لهـذه النـدوات، تكـثر المشـاركات، وتغيـب أحيانـا مناقشـة الأوراق البحثيـة مناقشـة فعالـة، يُهتـم بالكـم ويُهمـل الكيـف، فتقـل الفائـدة، وهـذا مـا لاحظنـا بعـض انعكاسـاته في نـدوات المؤتمـر؛ فبالنظـر إلى العـدد الهائـل للمشـاركين اضطـر المنظمـون إلى برمجـة ندوتـين في آن واحـد، مـما قـل معـه الحضـور، وكان لـه أثـر عـلى المناقشـة، غـير أن هـذا لا يعنـي أن النـدوات افتقـدت الفائـدة، بـل كانـت هنـاك مشـاركات قيمـة ونقاشـات علميـة رصينـة.

الطلبـة الأردنيـون ملتزمـون خدومـون يقفـون عـلى قـدم وسـاق مـن أجـل إنجـاح المؤتمـر، مـا منهـم أحـد إلا وللعيـون في محاسـن وجهـه مرتـع، وللنفـوس برقـة حديثـه مسـتمتع، لا تشـيح الابتسـامة عـن وجوههـم بتاتـا، ولا تسـمع منهـم كلمـة «لا» أو «أف» نفيـا أو إثباتـا، إذا طلبـت من أحدهم، ذكـرا كان أم أنثـى، خدمـة وصلـك ببـشره، وغمـرك بفضلـه، لا يفارقـك إلا وقـد قـضى حاجتـك، وأبلغـك بغيتـك وغايتـك، أو اطـمأن عـلى تمكنـك مـن قضائهـا بنفسـك، يبتسـمون لـك، يرحبـون بـك، يحيّونـك بلهجتهـم الحانيـة.

قضينـا صبـاح اليـوم الأول في عرسـات العلـم والمعرفـة نتفيـأ تحـت ظـلال أشـجار البحـث العلمـي، والنقـاش الرصـين.

مـن الأوراق التـي تابعتهـا بانتبـاه ورقـة بعنـوان «ملامـح مـا بعـد الحداثـة في روايـة حـرب الكلـب الثانيـة لإبراهيـم نـصر اللـه». وبعـد الانتهـاء مـن العـروض وفتـح بـاب النقـاش طلبـت الكلمـة فقلـت متوجهـا

إلى صاحـب الورقـة:

يـا سـيدي عـن أي حداثـة ومـا بعـد الحداثـة تتحـدث؟ هـل الحداثـة العربيـة بالمعنـى نفسـه عنـد الغـرب؟ متـى دخلنـا الحداثـة حتـى نتحـدث عـن مـا بعـد الحداثـة؟ الحداثـة عنـد الغـرب سـيرورة تاريخيـة يخلـف فيهـا اللاحـق السـابق ويتجـاوزه، وقـد سـبقتها النهضـة وعـصر الأنـوار، فهـل مررنا نحـن أيضـا مـن هـذه المراحـل، لمـاذا نجـري وراء اسـتعارة المفاهيـم دون أن تتـلاءم مـع واقعنـا؟. أبـدى الحـاضرون تفاعلهـم مـع أسـئلتي، أمـا صاحبـي فكأنمـا أحـس أننـي هدمـت بعـض مـا بنـاه. ولم يفـوّت الفرصـة، ففـي مداخلـة أخـرى بعنـوان «النـص والفـوارق الجندريـة، علاقـة جدليـة بـين الكائـن والممكـن»، تحدثـت صاحبتهـا عـن مجموعـة مـن أسـماء الكاتبـات المغمـورات، فلـما تدخلـت أشرت إلى إسـهامات الباحثـة فاطمـة المرنيـسي، فاسـتغل صاحبـي الفرصـة وعقـب عـلى تدخـلي بـكلام ذكـر فيـه أننـي أشرت إلى كاتبـة توجههـا معـروف، ومـا كان لي أن أفعـل، فكتاباتهـا فيهـا تجـرؤ كبـير عـلى النبـي محمـد صـلى اللـه عليـه وسـلم وعـلى الصحابـة»، كنـت أسـتمع إليـه، وأرى أسـاريره تتهلـل، رد دينـه ووفّى. بعـد انتهـاء المؤتمـر تحدثنـا وكأن شـيئا لم يحـدث وتبادلنـا أرقـام الهواتـف والبريـد الإلكـتروني، عـبرت لـه عـن تقديـري واحترامـي لـه وردّدنـا صادقـين مقولـة «الاختـلاف لا يفسـد للـود قضيـة».

15- في الطريق إلى الكرك

تناولنا الغذاء، على موائد فيها بدائع المأكولات، وأنواع الطيبات، مزخرفة زخرفة الرياض، مملوءة ملء الحياض، جمعت فوقها كل الفصول. فلما قضينا منها المأرب، واكتفينا من المأكل والمشرب، عدنا راجعين إلى فندق في مدينة الكرك. طريق العودة إلى الكرك كان وعرا، يمخر بنا سائق الباص، وهو باص خاص بالجامعة، الطريق المخترق للهضاب الصعبة وسط منطقة قاحلة، ترفعنا الوهاد وتحطنا النجاد، والسائق مركز على الطريق لا يكلم أحدا، ولا يثرثر كما هم بعض سائقينا.

تذكرني هذه المناظر بأيام طفولتي فقد نشأت أرعى الغنم في التلال والهضاب المحيطة بقرية تدعى دوار أولاد علي، لكن لم أكن أرعى بمقابل، وكيف آخذ مقابلا من وليّ نعمتي وواهبي حياتي وقرة عيني؛ أبي، كنت أتنقل بين المسارح والشعاب بغنيماتي الصغيرة الحجم، القليلة العدد، من «شعبة الذيبة» إلى «شعبة الحلفة»، إلى «شعبة الغويرقة».. أتبع نعيجاتي وأحمل مذياعي تحت إبطي...وسيلة أنسي وتواصلي بالعالم.

«شعبة الذيبة» كانت أقرب المسارح إلى البيت تضاريسها شبيهة بما أراه الآن أمام ناظري، كان بإمكاني أن أظل مراقبا لحركة الداخلين والخارجين من البيت، وكان بإمكاني أن أُسمع أحد إخوتي ندائي طالبا منه أو منها أن يأتيني أو تأتيني بالماء، لم أكن أحسّ عطشا حقا، ولكن كنت أفعل ذلك لعل أحد والدي يرقّ لحالي ويطلب مني أن أُعيد الأغنام وأعود معها إلى البيت.

كان باستطاعتي كذلك أن أشاهد أكوام الدخان تتصاعد من

«الكشينة» (مكان لطهي الخبز على الأعواد) معلنة عن بداية إعداد وجبة الغذاء، عفوا لم نكن نفرق بين الوجبات كما هو الحال الآن، كل وجباتنا فطور، خبز وشاي وقليل من الزيت في أفضل الأحوال أو بعض الزيتون المملح، لم نكن نذق طعم اللحم إلا ليلة السبت يوم يقام فيه السوق الأسبوعي، هذا حال أغلب الأسر الفقيرة في هذه القرية المهمشة... وجباتنا تتشابه لا يميزها إلا الأسماء المرتبة بزمنها، كلما رأيت منظر الدخان يملأ الأفق تقرقر أمعائي، وأحس برائحة الدخان تزكم أنفي، ويغشاني دفء عجيب وأنا أمنّي النفس بكسرة خبز ساخنة بطعم رائحة الأعواد، خليط من قمح وشعير، أتناولها مع كأس شاي أو لبن أو أغمسها في مرق الخضر.

كنت من حين لآخر يأخذني التحفز الزائد فأحتطب حزمة حطب أتزلف بها إلى أمي لعلها تتغاضى عن عودتي الباكرة، أو عن عدم شبع الأغنام، وكان الرعاة ينعتونني بـ»الفتاة الحادقة»، فأتألم لذلك، لكن كلمات الرضا من أمي تنسيني ذلك الألم عند العودة.

ونحن عائدون، كان الخوف طاغيا على وجوهنا الواجمة التي أعياها التعب، لم يكسر من حدة هذا الجو الثقيل سوى مناوشات أخوية نشبت بين باحثة من الجزائر وباحث من فلسطين، صديقنا الفلسطيني علي الجريري موسوعة تاريخية وجغرافية ناطقة عن فلسطين، شأنه يجل، وحديثه لا يُمَلّ، فصيح اللسان، غذي بلبان البيان، وسحب على سحبان ذيل النسيان، كما قال الحارث بن همام، يقطّع مفاصل الكلام، فيدرك بها في النفوس المرام، ما في الجمع واحد إلا وله منصت سامع، وفي الاستزادة من حديثه آمل وطامع. على امتداد الطريق حدثنا عن آلام فلسطين، نقل لنا أحزانها وجراحها، ومعاناتها التي لا تنقلها قنوات النفاق العالمية بأسرها، حدثنا عن الفلسطينيين الحقيقيين الذين لا يُذكرون في الإعلام المأجور، عن الوضع الأمني المتأزم.

قال لنا: «الوضع الطبيعي هو أن يكون هناك حوادث أمنية، والاستثناء ألا تكون»، حدثنا عن الشهداء الذين لم يذكرهم الإعلام، وما أكثرهم، كنت أستمع إليه كتلميذ مواظب يلتقط كل صغيرة وكبيرة ينطق بها أستاذه في التاريخ الحديث، تاريخ محيّن وواقعي نابع من روح صادقة لم تتصرف فيه أيادي المزورين والمدلسين. تتملكني رعشة باردة شبيهة بتلك التي كانت تتملكني وأنا في مسيرة بالرباط أو البيضاء وسط جموع غفيرة بقلوب محترقة، جموع كباقي الجموع العربية، لا حيلة لها غير الصراخ، أمام خيانة حكامها للقضية وتطبيعهم مع الكيان الغاشم، جموع تزحف في الشوارع لنصرة القضية الفلسطينية تشعر بالهيبة عندما تصدح الحناجر بالشعارات المزلزلة: «إدانة شعبية للأنظمة العربية. فلسطين تقاوم والأنظمة تساوم»، «سحقا سحقا بالأقدام للصهيون والميريكان»،»يا شهيد ارتاح ارتاح سنواصل الكفاح ..فلسطين أمانة والتطبيع خيانة».

استمعت لصديقي الفلسطيني وقلبي يحترق كمدا، لعنت في نفسي كل القنوات التي تغطي عنا هذه الحقائق، تأكدت أن كثيرا من العرب مثلي لا يعرفون معاناة الشعب الفلسطيني الحقيقية. وكادت عبراتي تفضحني حينما قالت إحدى الفلسطينيات: «وأنا الآن لست متيقنة ما إذا كان سيُسمح لي بالعودة والدخول أم لا!»، يا الله! أي فجيعة أكبر من أن تصبح مضطرا للاستئذان في الخروج والدخول إلى بيتك! أي عار هذا الذي لحق بكم يا عرب من قبل شرذمة قليلة وعصابة متسلطة؟

عجيب أمر هؤلاء الفلسطينيين كل واحد منهم يحمل معه تاريخ بلاده، منهم من يحمله فكرا، ومنهم من يحمله قصيدة ناطقة، ومنهم من يحمله شهادة بادية على جسده، كما هو حال الدكتور إبراهيم سباتين.

16- أربع رصاصات غادرة

صديقي إبراهيم واحد من أبناء فلسطين الذين يحملون تاريخها ونضالها وكفاحها معه أينما حل وارتحل، شهادة حية لا تحتاج لأوراق إثبات، بقدر ما يعتز بها ينوء بآلامها. يعاني من إعاقة على مستوى ساقه ويسند ظهره دائما بإحدى يديه، لا يستطيع المسكين أن يطيل الوقوف، وإذا جلس احتاج جهدا كبيرا عندما يهم بالقيام.

تألمت لحاله، وبينما كنا في مزارات الكرك أحس بالعياء، ولما هم بالقيام عانى كثيرا فمددت إليه يدي وساعدته، بعد ذلك قص علي حكايته.

قال: ترجع أحداث هذه القصة الأليمة إلى عام 1992 عندما كنت طالبا بالسنة الأولى بالجامعة، وكنت أدرس الكيمياء، عرفت البلاد في تلك الفترة توترات وأحداثا كثيرة، أفقدت جيش الاحتلال عقله، فجنّ جنونه. كان جنوده ينتشرون في كل مكان ويطلقون الرصاص الحي بشكل عشوائي في كل جهة. كنا ثلاثة أصدقاء مجتمعين نعبر الشارع، أصابت رصاصة طائشة أحد أصدقائي فاستقرت في قلبه، ففاضت روحه الطاهرة على الفور، ودرجت دماءه الزكية الأرض، وما كدت أستفيق من نوبتي حتى أصابت رصاصة أخرى قدم صديقي، فسال دمه، وقبل أن أسأله عن مصابه حتى، كانت رصاصتان غادرتان قد اختارتا جسدي هذه المرة، استقرت أولاهما في ظهري، وها أنت ترى أثرها، والأخرى انغرزت في ساقي وها أنت ترى عرجي كمعاق، أتذكر ذلك جيدا، سبعة وعشرون عاما مرت وما نسيت أي دقيقة من تفاصيل هذه الجريمة النكراء للعدو المحتل.

وكيف أنسى وقد فقدت صديقا عزيزا أمام ناظري، ولم نكن نحن

الاثـين بأفضـل حـال منـه، فبقينـا بإعاقـة دائمـة إلى اليـوم. أمضيـت سـنتين مقعـدا عـلى كـرسي متحـرك، وعـدة سـنوات أخـرى بعكازيـن، ومـا زلـت أعـاني حتـى اليـوم، كـما تـرى.

تهللـت أسـارير صديقـي إبراهيـم ماحيـا أثـر الحـزن وواصـل باعتـزاز: لم تقـف هـذه المعانـاة أمـام طموحـي، ولم يسـتطع الاحتـلال الجبـان أن يثنـي عزيمتـي، شـأني شـأن أي فلسـطيني عـلى أرضنـا الحبيبـة فلسـطين. فقـد أكملـت دراسـاتي وحصلـت عـلى الدكتـوراه باللغـة الإنجليزيـة، كـما كنـت ثـاني اثنـين فقـط مـن الطلبـة العـرب الذيـن حصلـوا عـلى منحـة دراسـية مـن جامعـة نيويـورك حيـث درسـت هنـاك، وهـذا العـام حصلـت عـلى زمالـة جامعـة هارفـورد ومـا زلـت أتابـع دراسـتي هنـاك لمـدة سـنة دراسـية وأعمـل الآن أسـتاذا مسـاعدا في جامعـة فلسـطين التقنيـة وحاصـل عـلى إجـازة أفضـل مـدرس في فلسـطين.

كان صديقـي إبراهيـم وهـو يتحـدث يسـمو أمامـي ويسـمو حتـى انتصـب كالجبـل الراسـخ، بينـما كنـت أشـفق عـلى نفـسي وأنـا الـذي عشـت في بـلادي هانئـا مطمئنـا لم أصـل إلى مـا وصـل إليـه هـذا البطـل الشـهم. إنهـا يـا سـادة فلسـطين التـي لا تلـد إلا الأبطـال الأشـداء مـن رحـم معاناتها.

إبراهيـم رجـل يسـتحق تحيـة الأبطـال، هممـت بتقبيـل رأسـه، منـذ تلـك اللحظـة صرت أحنـي رأسي كلـما واجهتـه إكبـارا وإجـلالا.

17- وفي الأردن فقر وتهميش كما عندنا

كان الطريق وعرا، يشبه في التواءاته الطريق الرابطة بين الصويرة وأكادير المسمات «طابوكة»، والتعب قد بلغ منا مبلغه. السائق يتلوّى بالحافلة بحنكة كبيرة وبسلاسة كأنها أفعى فضية تنساب بين أغصان البان، والمؤتمرون يتهادون كالكراكيز المسرحية، نال منهم التعب مبلغه، منهم من غلبه النوم، ومنهم من خاض في حديث ثنائي مع صاحبه، ومنهم من اعتزل في محراب الصمت يتأمل التضاريس المقفرة.

على جنبات الطريق خيام منصوبة في القفار حولها نعاج صغيرة الحجم كبيرة الذيل، وأمامها أطفال صغار بلباس بالية وأقدام حافية، يلعبون وهم في قمة السعادة، هنا المعنى الحقيق لمقولة «السعادة لا تقاس بالمال». تخيلتني طفلا بينهم وأنا الذي نشأت مثلهم بدويا قحا، لا نكف عن اللعب، ولا يمنعنا ذلك من ارتياد «المسيد» لتعلم القرآن، عادة بدأت تندثر.

بدأت رحلة اكتشاف الحروف الأبجدية الأولى في «المسيد» وهو الكتّاب، رفقة أطفال حفاة عراة تماما كهؤلاء الذين أراهم هنا، كان والدي، حفظه الله وأطال في عمره، هو المدرس، يحرص على تعليمي فك شفرات الحروف منذ الصغر، يستعمل في ذلك كل الوسائل التعليمية المشروعة وغير المشروعة، أحيانا يأخذني بإبهامه وسبابته من حنجرتي يجرني إليه وهو يردد أحد الحروف الذي لم أتمكن من تذكره، ثم يدفعني لأستلقي على ظهري، وترتفع ساقاي إلى أعلى، وبينما كنت أبكي تألما وإحساسا بالمهانة كان بقية الصبية الأشقياء يتقنعون بألواحهم وينفجرون ضاحكين، وما هي إلا لحظة حتى تدور الدائرة على واحد آخر، فيتكرر المشهد نفسه، ونضحك قبل أن تجف دموعنا.

تخيلتني أصطحبهم إلى المدرسة بعد أن بلغنا سن السابعة أقف أمامهم طيلة الحصة أردد بصوت عال أ. ب. ت ... ويرددون خلفي بصوت أعلى جماعة: أ. ب. ت ...ذلك أن من حسنات منهجية أبي أن قد أثمرت، فدخلت المدرسة وأنا أتقن القراءة والكتابة، فاستغل أستاذ القسم الأول - رحمه الله- ذلك وسلمني مشعل التدريس، ربما كان ذلك فألي الأول على أنني سأكون مستقبلا مدرسا، فقضيت السنة أمام السبورة أحمل عودا أتتبع به الحروف وأرددها ويردد ورائي التلاميذ فرادى وزرافات. في نهاية السنة اطلع الأستاذ على كتبنا فوجد كتبي في حالة جيدة بين باقي الكتب، فقال لي: «سآخذ كتبك لابنتي التي ستلج المدرسة في السنة المقبلة»، رفضت متذرعا بالخوف من والدي الذي لا محالة سيسألني عن مصير الكتب، فما كان من الأستاذ إلا أن رماني برصاصة قاتلة قائلا: «طيب، أنت لست بناجح». لا زلت أذكر يومها كم بكيت، وقد كان اليوم هو الذي ستليه العطلة مباشرة، وكم كنت ساذجا عندما كنت أرى النتائج الصفراء فوق المكتب قد أُعدت بشكل نهائي ولا تنتظر إلا التوزيع، ورغم ذلك صدّقت ادعاء الأستاذ.

كنت عائدا إلى البيت وأنا أحمل هما كالجبل، يجثم على القلب فيثقل، ماذا سأقول لهم؟ كيف سيكون إحساسي عندما ينجح أبناء الدوار وأكرر أنا؟ وبينما كنت غارقا في تفكيري، أرسل المعلم ورائي تلميذا آخر قال له: «قل له غدا يأتيني بالكتب وبدجاجة إذا أراد أن ينجح».

كانت عادة الإتيان بالدجاج في نهاية الموسم الدراسي من العادات المألوفة في مدرستنا، وقد كانت أمهاتنا تسلمنا الدجاج عن طيب خاطر تقديرا لجهود معلمينا الذين كانوا فعلا يجتهدون في تدريسنا رغم صعوبة ظروف القرية، ولم يكن الفقر مانعا لهن من التكرم بما يملكن. في اليوم الموالي أعطتني أمي الدجاجة وأخذ الأستاذ الكتب،

وعـدت أنـا بالنتيجـة التـي فرحـت بهـا كثـيرا، ورقـة صفـراء مخططـة تتـلألأ بـين يـدي الصغيرتـين المرتجفتـين، حدقـت فيهـا مليـا في الأسـفل عبـارة بقلـم حـبر بـارزة «ينتقـل»، وكـم كنـت فخـورا حينـما نطـق الأسـتاذ باسـمي، كنـت أنـا الأول وحصلـت عـلى معـدل تسـعة فاصلـة واحـد وثمانـين مـن عـشرة، كنـت أحتفـظ بهـا مـع جميـع نتائجـي الصفـراء إلى حـدود السـنوات الأخـيرة حيـث أحرقـت أختـي كل نتائجـي في فعـل آلمنـي كثـيرا لأنـه طمـس جـزءا مـن ذاكـرتي، ولم أجـد لمـا فعلـت إلى الآن أي تبريـر.

هـذه التضاريـس الوعـرة شـبيهة تمامـا بالقريـة التـي دفنـت فيهـا طفولتـي، وهـذه الحقـول الصغـيرة جـدا تمامـا كـما هـي حقـول قريتنـا الفقـيرة. كان والـدي يريـدني بجانبـه أعمـل معـه في أمـور الفلاحـة، يحـرص عـلى تعليمـي كل صغـيرة وكبـيرة تتعلـق بهـذا المجـال، أبجديـات الحـرث والحصـاد وغيرهـا، وكانـت أمـي تريـدني أن أصبـح فقيهـا، يتلـو القـرآن، ويصـلي بالنـاس ويحدثهـم، وينادونـه بلفظـة السـيادة، كـما كان جـدي رحمـه اللـه، الـذي أخبرتنـي بأنـه تـرك كتبـا كثـيرة اسـتولى عليهـا أحـد الأقـارب، وكانـت تعـدني بأننـي عندمـا أصـل «حـزب طـه» سـتقيم لي وليمـة وتذبـح فيهـا كبشـا سـمينا، عمـلا بقـول مأثـور كان طـلاب القـرآن يتداولونـه وهـو «طـه، والكبـش حداهـا»، ومعنـاه بالعربيـة «سـورة طه تسـتدعي ذبح كبـش لهـا» لأنهـا تقـع في نصـف القـرآن، ولكـن أمـي لم تفـي بوعدهـا، ليـس غـدرا، ولكـن لقلـة ذات اليـد، وبـين أمنيتـي أبي وأمـي كان القـدر الربـاني يريـد لي شـيئا آخـر.

18- لص وكلب وطفل يعلمون شيخا عارفا

كنت قد أخذت، عن سبق إصرار وترصد، مكاني قرب صاحبي الفلسطيني علي الجريري، هذا الرجل وحده من بيننا ظل محافظا على رشاقته، رابط الجأش يفيض حيوية، على الرغم من أن شعره الذي اشتعل شيبا جعله يبدو أكبرنا سنا، ربما علمته الحياة في فلسطين الكفاح والنضال والصبر والوصال.

تناول صديقي الميكروفون لأن الحافلة كانت مجهزة بمكبر للصوت، وشرع يحدثنا على امتداد الطريق، عن فلسطين، وعن روح الأمل التي يتمتع بها الفلسطينيون، فأدركنا أننا نحن الذين في حال يرثى له، ونحن الذين نستحق أن يُبكى علينا، أما إخواننا هناك في أرض الأنبياء والمرابطة فيعيشون عيشة الأسود والنسور. قاده الحديث إلى أن حكى لنا حكاية طريفة، أحببت أن أنقلها كما رواها هو.

قال إن أحد الروائيين الكبار، ودون أن يسميه ما فتئ يكرر هذه الحكاية في مستهل أغلب رواياته، والروائي كما يعرف الجميع هو باولو كويلو، سأحدثكم عن الرجل الذي تعلم من ثلاثة: لص وكلب وطفل. فتعجبنا كيف يتعلم من هؤلاء؟

قال: لا تتعجبوا سأحكي لكم وبعد ذلك احكموا. وإليكم القصة كاملة:

سأل أحد التلاميذ معلمه الحكيم: من كان معلمك أيها المعلم؟

فأجابه المعلم: بل قل المئات من المعلمين. وإن كان لي أن أسميهم جميعاً، فسوف يستغرق ذلك شهوراً عديدة، وربما سنوات، وسوف ينتهي بي الأمر إلى نسيان معظمهم.

عقب عليه التلميذ: ولكن أيها الشيخ الحكيم صاحب العقل

الـوزّان، ألم يكـن لبعضهـم تأثـير عليـك أكـبر مـن تأثـير الآخريـن؟

اسـتغرق المعلـم الحكيـم في التفكـير بعضـا مـن الوقـت ثـم أجـاب: حسـناً،هنالك ثلاثـة معلمـين تعلمـت منهـم أمـوراً عـلى جانـب كبـير مـن الأهميـة.

قال الطفل مبتهجا: من هم يا سيدي؟

فأجـاب: أولهـم كان «لصـاً»؛ فقـد حـدث يومـاً أننـي تُهـت في الصحـراء، ولم أتمكـن مـن الوصـول إلى البيـت إلا في وقـت متأخـر مـن الليـل، وكنـت قـد أودعـت مفتـاح البيـت عنـد جـاري، ولم أشـأ إيقاظـه في تلـك السـاعة المتأخـرة، وفي النهايـة صادفـت رجـلاً طلبـت مسـاعدته، فقـال لي اطمـئن سـأفتحه لـك دون أن أكـسره، ففتـح لي البـاب في لمـح البـصر! أثـار الأمـر إعجـابي الشـديد وسـألته كيـف فعلـت ذلـك؟ فأخـبرني أنهـا مهمتـه وهـو لـص، فقلـت لـه معاتبـا: لـص وتفتخـر بذلـك؟

فأجابنـي: أيهـما أفضـل أيهـا الشـيخ؟ أن أكـون لصـا وصادقـا؟ أم أن أكـون لصـا وكاذبـا؟

فقلت: أن تكون لصا وصادقا طبعا.

علـق صاحبنـا الفلسـطيني: وهـذا تفكـير إيجـابي يـا إخـوتي، أنتـم تعلمـون أن المؤمـن كـما جـاء في الحديـث، يفعـل ويفعـل ويفعل...لكـن هـل المؤمـن يكـذب؟ المؤمـن لا يكـذب، لأن الإيمـان تصديـق، والكـذب عكـس ذلـك، والكـذب أبـو المبيقـات، فأنـت تسـتطيع أن تتعامـل مـع كل النـماذج البشريـة حتـى أولئـك الذيـن هـم ذوو مـزاج صعـب. عـدوك أيضـا إذا كان صادقـا تسـتطيع أن تتعامـل معـه، لكـن إذا كان ابـن جلدتـك، أو المسـؤول عنـك، أو الجنـدي معـك يكـذب فإنـك لا تسـتطيع التعامـل معـه لأنـه ليـس هنـاك أمـان.

قـال صاحبـي مسـتأنفا الحكايـة: قـال المعلـم فقلـت لـه: مـا دمـت كذلـك فأنـت ضيفـي. فقـل لي مـا ذا سـتفعل غـدا؟

قال: سأخرج لأنال نصيبي من الله.

فقلت مؤنبا: أتخرج لتسرق وتقول إنه نصيبك من الله؟

فقال: وما أدراك، وأنت قل لي ماذا ستفعل أيها الشيخ؟

قلت: أنا أريد أن أصلي وأكثر من الصلاة. وأدعو الله وأستغفر، وأكثر من الدعاء.

فقال لي: ما رأيك أن نتشارك؟

قلت متعجبا: فيم؟

قال: ما آتي به نتقاسمه، وأنت تكثر من الدعاء، والاستغفار لي ولك، لأنك أنت إذا دعوت فقمن أن يتقبل الله منك لأنك عبد تقي. أما أنا فلا، لأنني لص.

قال الشيخ: كان اللص يعود أحيانا كثيرة فأسأله، فيجيب: والله لم أنل اليوم من نصيبي شيئا، ولكن (يقول صديقنا: انتبهوا إلى الرسالة) بعون الله سأعاود المحاولة غدا.

قال المعلم: عددت له سبع عشرة مرة يعود خاوي الوفاض ويقول الجملة نفسها: ولكن بعون الله سأعاود المحاولة غدا.

قال صديقي الفلسطيني معلقا: كان هذا أيها الإخوة والأخوات أهم درس؛ أن تكرر المحاولة، نعم هذا أهم درس، ثم واصل: وأنا أحكي هذه القصة في جامعة عبد الملك السعدي بتطوان كان معي واحد اسمه ديشارما، مدرب تنمية بشرية وعنده كتابان مهمان في التدريب أحدهما هو «العظمة في البساطة»، والثاني «دروس في السعادة والنجاح»، فقال لي: هذه القصة، هي نفسها وردت مع أديسون الذي أعاد المحاولة ألف مرة من أجل النجاح. أنتم معكم مثل هذه القصة بهذا الشكل؟ فقلت: أي نعم والذي نقلها واحد مثلك روائي من بني جلدتك.

التفت إلينا مرة أخرى وأكد: تذكروا جيدا، هذا أول بند في النجاح،

«أن تعاود المحاولة».

تم تابع صديقي: في الصين يقولون: إذا حلمت حلما، يمكنك أن تحقق ما تريد من الحلم، بشرط أن تضع ذلك على جدول أعمالك، وأن تبدأ بتنفيذه وتستمر. ثم استطرد: وبالمناسبة الصين فيها خمسمائة مليون مسلم، ورغم أنها بلد علماني، فهؤلاء المسلمون يعيشون بقوانين لا دينية ولكنهم يظلون يتشبثون بدينهم، لأن الإيمان ثابت لا يزعزعه شيء.

خفنا أن يدركنا الوصول وتفوتنا نهاية الحكاية، فبادر أحد الركاب، وماذا تعلم من الكلب يا أستاذ علي؟

قال صاحبي: ثم سألوه عن الكلب مثلما تسألون الآن: ما ذا تعلمت من الكلب؟

قال لهم: نزلت أشرب من نبع فرأيت كلبا يريد أن يشرب، كان يلهث من شدة العطش، وفجأة توقف لأنه رأى كلبا آخر في النبع، وصار ينبح عليه، ولكنه كان عطشانا ويحتاج أن يشرب. فاندفع إلى الماء، وبمجرد أن لامس لسانه الماء اختفى الكلب الثاني. وعلق صاحبي: هذا الكلب الثاني لم يكن سوى صورة الكلب الحقيقي المنعكسة على سطح الماء الصافي. فلم يكن كلبا حقيقيا، ولكنه كان مجرد وهم.

نعم أيها الإخوة الكرام، جيد أن تتوقف أحيانا، ولكن عليك أن تتابع، نعم، عليك أن تتابع، فمعظم مشاريعنا كيفما كان نوعها تفشل بسبب عدم المتابعة. فأحيانا ننجز مشروعا كاملا لكننا نتوقف عند آخر درجة. فالكلب توقف بسبب مخاوف وهمية لا حقيقية، لذلك قيل: «دع مخاوفك تعبرك». إذا عبرتك مخاوفك وأصبحت خلفك فلا شيء يمنعك، فهذا هو ما يسمونه في مجال التدريب «الجدران الوهمية»، فهي ليست جدران من حديد ولا من خشب ولا حواجز عسكرية ولكنها من قبيل: هذا عيب، هذا لا ينفع، ماذا سيقول الناس؟ كل

هـذه العنـاصر تجعلنـا نتوقـف دون أن يكـون هنـاك سـبب وجيـه للتوقـف. أنـا درّبـت نسـاء سيشـاركن في البلديـات، بـع أن أقـرت الدولـة بـأن تكـون هنـاك نسـبة وكوطـة مـن النسـاء مشـاركات وناجحـات في الانتخابـات، أتتنـي إحداهـن وهـي مثقفـة عارفـة تحمـل مشروعـا طموحـا يحدوهـا تحفـز وحـماس ظاهريـن، ومـن المؤسـف أن يكـون رئيسـها غـير متعلـم، ولكـن عنـده سـلطة وهيمنـة، فيعـترض عـلى المـشروع فتذهـب لحـال سـبيلها تلـوك خيبتهـا دون أن تقـدر عـلى مناقشـته. فكنـت أعلمهـن كيـف تجيـب الواحـدة منهـن عندمـا يقابلهـا الرئيـس بمثـل هـذا التـصرف، حتـى تسـتطيع تنقيلـه مـن أقـصى السـلبية إلى أقـصى الإيجابيـة؟

قلـت لهـا تسـألينه في نـوع مـن السـخرية المضمـرة: مـا العلامـة التـي حصلـت عليهـا سـيدي في علـم الأسـترولوجيا؟ سيسـألك مـا الأسـترولوجيا، لأنـه يسـمعها لأول مـرة. فقـولي لـه: أنـت لا تعـرف معنـى الأسـترولوجيا، فكيـف تعـرف نتيجـة امتحـان لم تتقـدم إليـه؟ عجبـا، فأنـت لم تقـرأ المـشروع، فكيـف تحكـم عليـه بأنـه غـير صالـح، اقـرأه أولا، وإذا لم يعجبـك ارفضـه، دعنـا نقـرأه أمـام النـاس. قلـت لهـا: ادفعيـه ليقـرأ. قـولي لـه: وإذا لم يكـن المـشروع صالحـا في الشـتاء، نؤجلـه إلى الصيـف، وإذا كان يحتـاج لتغيـير وقـت غيرنـاه، وإذا كان يحتـاج لوسـيلة أخـرى بحثنـا عنهـا. عـدد لي العوائـق وسـنعمل سـويا عـلى تجاوزهـا.

ثـم اسـتطرد يـشرح: أحيانـا يطلـب رئيـس الجامعـة مـن أسـتاذ باحـث أن يحـضّر موضوعـا فيعتـذر لـه بكونـه لا يعـرف، أو أنـه لا ينـدرج ضمـن تخصصـه، جيـد أن تعـترف بأنـك لا تعـرف، ولكـن ليكـن هـذا درسـا بالنسـبة إليـك، ويدفعـك للتعلـم وللمغامـرة، فـماذا سـتخسر، فقـط حـاول فـإن نجحـت فـذاك، وإلا فكـرر المحاولـة، تعلـم مـن الـدرس السـالف.

فالكلـب علـم الشـيخ أولا أنـه مـن الجيـد أن تتوقـف أحيانـا ولكـن واصـل، وثانيـا أن دع مخاوفـك تعـبرك. والربـح في المغامـرة، لأنـك إذا غامـرت

تضمن مسألتين: الأولى مخاوفك الوهمية تصير وراء ظهرك، والثانية أنك قد تنجح. وإذا لم تغامر تقول: «يريثني فعلت ذلك»، يا ليتني فعلت.

ومرة أخرى خفت أن يدركنا الوصول قبل أن يتمم راوينا حكايته، فقاطعته، قل لي يا سيدي علي ماذا تعلم من الطفل؟ كأنك نسيت ذلك. نظر إلي وابتسم ابتسامة جميلة ثم قال نحن الكبار نظن أننا وحدنا الذين يمتلكون الحكمة، ونسخر من الصغار، مع أن القرآن واضح { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ}، قال: قال الشيخ: مرة وأنا ذاهب إلى المسجد كي أصلي وجدت طفلا يحمل زيتا وسراجا إلى المسجد، فقد كانوا يضيئون قديما بالزيت والسراج (التعليق للراوي)، والسراج مضاء، توقفت أمام الطفل وسألته: أأنت الذي أشعلت السراج؟ قال نعم، قلت: قل لي أيها الطفل من أين جاء النور الذي يشعل السراج؟ قال نظر إلي الطفل ثم أطفأ السراج وقال لي: قل لي أنت أيها الشيخ أين ذهب النور الذي كان يضيء السراج؟ قال: فأيقنت أن فلسفة الصغار وحكمتهم تفوق بكثير فلسفة الكباروحكمتهم.

ذكرني حديث صاحبنا الفلسطيني عن المغامرة بأحد الدروس المهمة التي استنبطها الباحث المغربي عبد الفتاح كيليطو من دراسته لحكاية السندباد والتي يمكن لكل إنسان أن يستفيد منها؛ وهذا الدرس هو أن السعادة تقاس بالمشاق التي كوبدت من أجلها، وكل واحد ينال من النعيم بحسب الأهوال والأخطار التي لقيها. فتشبث السندباد الحمّال بالبر حرمه الغنى كما حرمه مشاهدة الغرائب والعجائب، على عكس السندباد البحري الذي سافر وخاض مغامرة البحر فتوفر له الغنى ورصيد من الحكايات الشيقة التي تروى فتشد انتباه المروي له. والمثل يقول: «من لم يركب الصعاب لا ينال الرغائب».

ويبدو أن هذا الرأي ليس رأي حكاية السندباد وحدها، ولكنه رأي متجذر في ثقافة الإنسان العربي، يقول الشافعي (ت204هـ) رحمه الله في فوائد السفر :

ما فِي المَقامِ لذي عقلٍ وذي أدبٍ == مِنْ رَاحَة فَدعِ الأَوْطَانَ واغْتَرِبِ
سافرْ تجدْ عوضاً عمَّن تفارقُهُ == وَانْصَبْ فَإنَّ لَذِيذَ الْعَيْشِ فِي النَّصَبِ

والنصب: التعب.

وبناء على هذا المبدأ يرى كيليطو أنه بتوقف السندباد عن الارتحال والمغامرة نفدت المادة الحكائية فتوقف السرد الذي يحيا بالحركة ويموت بالاستقرار. يقول واصفا السندباد بعد توبته من السفر: «وبعد سبعة أيام لم يبق له ما يحكيه ولم يبق لشهرزاد ما تحكيه عنه، فيتوقف كل شيء ويتحجر الأشخاص في انتظار الموت». فالسفر والمغامرة لهما فوائد عديدة، كما قال صاحبي الفلسطيني، هما فرصة يتعلم منها المرء ويكتسب منها معرفة قابلة لأن ينقلها إلى غيره. يقول الشافعي رحمه الله معددا فوائد السفر والاغتراب :

تَغَرَّبْ عَن الأَوْطَانِ فِي طَلَبِ الْعُلا == وَسَافِرْ، فَفِي الأَسْفَارِ، خَمْسُ فَوَائِدِ
تَفَرُّجُ هَمٍّ، وَاكْتِسابُ مَعِيشَـــــــة == وَعِـــلْمٌ وَآدَابٌ وَصُحْبَـة مَاجِـد

وفي القرآن الكريم من القصص ما يؤكد هذا التأويل، ففي سورة الكهف قصتان؛ الأولى لنبي الله موسى مع الخضر، تبين أن موسى، لكي يتعلم من العلم اللدني الذي منّ الله به على الخضر، كان لا بد وأن يغترب ويخوض البحر مغامرا، والقصة الثانية لذي القرنين، الذي لولا سفره في الأرض ومغامرته في الأقطارمن المغرب إلى المشرق لما شاهد ما شاهد من العجائب، ولما ملك ما ملك. فتحصيل العلم والمعرفة، ولا سيما ما يتعلق منهما بعجائب الأمور، وتحصيل الغنى المادي، أمران لا بد لهما من مفارقة الأوطان، والمغامرة، ومكابدة مشاق السفر وأتعابه. هذه الحقيقة المتعلقة بتيمة السفر في التراث العربي تؤكد نسقية هذا التراث وارتباطه ببعضه البعض، فبين أيدينا ثلاث مدونات

مختلفـة (القـرآن، والشـعر، والـسرد)، تتحـدث عـن موضوعـة السـفر بالمعاني نفسـها، أليسـت هـذه ملاحظـة تسـتحق العنايـة؟

19- هنا دارت فصول مؤتة معركة الأبطال

عندما اقتربنا من الكرك مررنا بمنطقة أخبرنا أنها هي المكان المفترض لوقوع غزوة مؤتة، يحتفظون بها كما هي خلف المعمار الحضاري، عاودتني الرعشة، أحسست بقدسية المكان تحيطني بهالة من السكينة، تذكرت التضاريس الوعرة التي تسيج المكان، أي أجسام تلك التي اقتحمتها، بأي إرادة وبأي إيمان كانت مسلحة، أي عزيمة قادتها إلى هناك، ثلاثة آلاف رجل فقط يقفون بشجاعة الأسود الضارية أمام مائة وخمسين ألف مقاتل، حسب بعض المصادر السيرية.

يتقدم الجيش بقيادة زيد بن حارثة وكلمات القائد الشريف تتردد في الأسماع مطلقة أشرف مواثيق القتال على مر العصور: «اغزوا باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام، وستجدون فيها رجالا في الصوامع معتزلين فلا تتعرضوا لهم، ولا تقتلوا امرأة ولا صغيرا ولا بصيرا فانيا، ولا تقطعوا شجرا ولا تهدموا بناء»، ما أعظمك أيها القائد العظيم! لسان حالك يقول: إنما هو قتال لغاية معينة، لأجل القصاص ممّن قتلوا الحارث بن عمير الأزدي رسولي إلى أمير بصرى، لذلك لا تقاتلوا إلا مقاتلا مسلحا خرج للقتال، ووقروا ما دونه، اتركوا الشيوخ والأطفال والنساء والزهاد، وإياكم والإفساد في الأرض.

لم يزالوا سائرين حتى وصلوا هنا، مؤتة حيث مقتل الحارث بن عمير، وجدوا الروم قد جمعوا لهم جمعا عظيما منهم ومن العرب المتنصرة. فما يفعل ثلاثة آلاف أمام مائة وخمسين ألفا؟ فتفاوض رجال الجيش فيما يفعلونه: أيرسلون لرسول الله يطلبون منه مددا أم يقدمون على الحرب؟

وليس عجيبا هذا التوقف والتشاور فالمسلمون بشر، يعتريهم ما

يعتري البشر، كيف لا يترددون وهم يرون أمامهم جيشا عرمرما جرارا. ولكن بعضهم كان جبلا راسخا من الإيمان كابن رواحة الذي لم يساوره أدنى شك في أن لا شيء يصمد أمام الإيمان الصادق، وإذا باللسان ينطق بما يفيض به القلب، فتتدفق العبارة حارة مثبتة ومحفزة ومذكرة: «يا قوم والله إن الذي تكرهون هو ما خرجتم له، خرجتم تطلبون الشهادة، ونحن ما نقاتل بعدد ولا بقوة ولا بكثرة، ما نقاتل إلّا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فإنما هي إحدى الحسنيين إما الظهور وإما الشهادة».

وكانت المدينة تعيش نقلا مباشرا للمعركة، هناك حيث علام الغيوب وكاشف خفايا القلوب يجلي للنبي صلى الله عليه وسلم تفاصيل النزال، واستبسال المجاهدين الأبطال، في معركة غير متكافئة بمنطق الدنيا. بعين المشاهد عيانا ينقل الحبيب المصطفى أطوار المعركة، بقلب الرحيم العطوف، يذرف دمعا غزيرا، ويعلق بحزن: «أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب، حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم».

تخيلت زيدا بن حارثة يأخذ الراية يقاتل بضراوة بالغة، فلم يزل يقاتل حتى اخترقته رماح القوم، فخر صريعاً. تناول الراية بعده جعفر بن أبي طالب، وطفق يقاتل قتالاً باسلا، حتى قطعت يمينه، فأخذ الراية بشماله، ولم يزل بها حتى قطعت هي أيضا، فاحتضن الراية بعضديه في موقف بطولي نادر، حتى قتل، استشعرت خفقه في الجنة يحلق فيها بجناحين من نور أنّى شاء. ثم رأيت الشاعر العظيم عبد الله بن رواحة قد تقدم بفرسه فتناول الراية، فجعل يستنزل نفسه، يثبتها وهو ينشد:

أقسَمتِ يــا نَفــسُ لتَنْزلَنــَّهْ *** لتَنْزِلَـــنَّ أو لَتُكـْرَهَنَّـــهْ
إن أَجلَبَ الناسُ وشدُّوا الرَّنَّة *** مالِي أراكِ تكرهين الجَنَّـــةْ

ثـم أخـذ سـيفه فتقـدم، فقاتـل حتـى قُتـل هـو الآخـر. ثـم تنـاول الرايـة البطـل المقـدام خالـد بـن الوليـد فصـار يقاتـل، ينكـسر الحديـد في يديـه سـيفا بعـد آخـر إلى أن نصرهـم اللـه، يتقـدم خالـد بهمّتـه ومهارتـه الحربيتـين، فإنـه لمـا أخـذ الرايـة قاتـل يومـه قتـالا شـديدا. ويبيـت الجيـش الـذي ظـل في المعركـة قائمـا يتلـوا آيـات اللـه تـتردد وسـط الصحـراء وتحـت النجـوم المتلألئـة، والقائـد خالـد يبيـت واقفـا، يحـرث المـكان حرثـا، يقلـب الفكـرة بعـد الفكـرة، ويرسـم الخطـة عقـب الخطـة، مـا السـبيل إلى إنقـاذ هـذه الثلـة الصالحـة مـن مـوت حقيقـي يحـذق بهـا، دون أن يشـيع أن المسـلمين انهزمـوا؟ ومـا زال يقلـب النظـر حتـى اهتـدى إلى خطـة ذكيـة، في الصبـاح عمـد إلى اسـتراتيجية حربيـة مغايـرة، خالـف ترتيـب العسـكر، فجعـل السـاقة مقدمـة، والمقدمـة سـاقة، والميمنـة ميـسرة، والميـسرة ميمنة، وإذا بالحيلـة تنطـلي عـلى العـدو، وظـن الـروم أن المـدد جـاء للمسـلمين فيـدب الرعـب في القلـوب وتفشـل الركـب، ويسـود الفـزع، ويبـدأ التفكـير في الرجـوع، ويسـتغل القائـد خالـد الوضـع بشـكل أفضـل ثـم يأخـذ الجيـش ويـشرع في التراجـع حتـى سـلموا. وأقفـل الجيـش عائـدا يرفـع رايـات نـصر خـاص، هنـاك صدقـت فيهـم مقولـة «الحـرب مكيـدة»، وتتـسرع بعـض الألسـنة التـي اعتـادت النـصر للمسـلمين: «يـا فـرار»، وينهاهـم الحبيـب صـلى اللـه عليـه وسـلم ويصحـح لهـم: «بـل هـم الكـرّار».

تذكـرت القلـوب التـي كانـت تخفـق في المدينـة والعيـون التـي تـذرف وهـي تتابـع المعركـة فصـلا فصـلا وجولـة جولـة بنقـل مبـاشر مـن نبـي الأمـة صـلى اللـه عليـه وسـلم يجـلي لـه الغيـب تفاصيـل المعركـة عـن بعـد. وتذكـرت الحصيلـة كـما تذكرهـا كتـب السـير: خسـائر قليلـة للمسـلمين، وثقيلـة في جيـش الـروم، حصيلـة لا تخضـع لقوانـين العلـم والمنطـق،

إحصـاءات بمعايـير أخـرى، معايـير لـرب كل شيء ومليكـه، اللـه نـاصر المؤمنـين.

أيـن ذهـب اليـوم كل هـذا العـز وهـذه الأنفـة؟ لمـاذا لم يعـد للعـرب شـأن بـين الأقـوام؟

20- السلام عليكم يا شهداء مؤتة

أيقظني من تأملي ذاك صوت يخبرنا أننا وصلنا إلى مكان أضرحة شهداء مؤتة، دخلت مع القوم وكأني لست منهم ولا جئت معهم، «مرفوعا»، غائبا، وقفت أمام جعفر الطيار، ما رأيته ضريحا، بل حيا بجناحين يحلق أنى شاء كيف شاء. كيف يكون ميتا والشهداء أحياء؟ سلّمت عليه، دعوت له، أذرفت قربه دموعا ساخنة في لحظة خشوع فارقت فيها روحي جسدي وحلقت في أجواء ربانية عرفانية ما عشت مثلها من قبل، زاد من وقعها الأذان المشرقي لصلاة العشاء يتردد صداه الشجي في أرجاء الأضرحة وباحة المسجد المجاور، يأخذ بتلابيب القلب وشغاف الروح يرفعها في مقامات القرب والوصال. ودعت جعفرا وانطلقت إلى زيارة زيد بن حارثة، تذكرت نشأته في البيت النبوي، وما رأيته هو أيضا إلا حيا، حيا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، حيا في كتاب الله الذي نزلت فيه آيات منه «ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا»، بل ونزلت آية تخلد ذكر اسمه وحده دون غيره من الصحابة الأجلاء: « فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا» فهذه الآية أبطلت التبني وحرمته، ومنذ ذلك الوقت أصبح يدعى «زيد بن حارثة» باسمه الأصلي. سلمت عليه هو أيضا ودعوت له، وخرجت مستعجلا لأجل الصلاة، أما الشاعر البطل فلم تكتب لي زيارته، لأنه كان يرقد بعيدا قليلا عن صاحبيه.

بعد الصلاة توجهت إلى الإمام، رجل كبير السن، بلحية بيضاء لا

سـواد فيهـا، عـلى وجهـه نـور الأولياء(حسـبته كذلـك، ولا أزكي عـلى اللـه أحـدا)، تخيلتـه الإمـام الجنيـد في خلوتـه، احتضنني بـين ذراعيـه الحانيتـين، أحسسـت بقلبـي يتطهـر مـن أدرانـه وأحزانـه، وحـين حـرّرني بـادرت بتقبيل رأسـه، أخبرتـه أننـي مـن المغـرب، ففـرح كثـيرا ودعـا لي ولأهـل المغـرب عامـة وملكهـم، وذكـرني بحديـث سـعد بـن وقـاص عـن النبـي صـلى اللـه عليـه وسـلم: «لا يـزال أهـل المغـرب ظاهريـن عـلى الحـق حتـى تقـوم السـاعة»، ثـم خرجـت مـن المسـجد؛ خـرج جسـدي أمـا روحـي فلسـت واثقـا.

عدنـا إلى الفنـدق، فسـكت صاحبـي الفلسـطيني عـن الـكلام المبـاح، وقـال لنـا: الحمـد للـه عـلى سـلامة الوصـول يـا قـوم، سـكت وبقـي في نفـسي شيء كثـير مـما كان يبقـى في نفـس شـهريار مـن شـوق لسـماع تتمـة الحكايـة، حكايـة فلسـطين وأهـل فلسـطين.

21- قلعة الكرك

في اليوم الموالي استيقظنا كعادتنا باكرا، كنا على موعد مع زيارة قلعة في مدينة الكرك، وتقع مدينة الكرك بالقرب من البحر الميت في جنوب الأردن وكانت منطقة ذات أهمية كبرى في العصور الوسطى عند ما كانت الحملات الصليبية في أوجها. تقول المصادر التاريخية أن المدينة شهدت معارك عنيفة في عهد الأيوبيين على وجه الخصوص بين المسلمين والصليبين امتدت لعشرات السنين، ويقال إنها امتدت لأكثر من ستة عقود. وما منح الكرك هذا الموقع الاستراتيجي إلا وجود القلعة فيها، ويعود تاريخها الى القرن التاسع قبل الميلاد، إذ تقول المصادر التاريخية أن الذي بناها هو ملك مؤاب ميشع قيدار، وكان ذلك من أجل العبادة وبعد ذلك توالى عليها الحكام والدول على مر عصور التاريخ الطويلة، وفي إطار استراتيجية الصليبيين التي تهدف الى إحكام السيطرة على المناطق المجاورة للقدس أو القريبة منها احتلوا قلعة الكرك وأعادوا بناءها في العام 1115 ميلادية. ومنذ العام 1169 ميلادية حكم الكرك حاكم صليبي يسمى فيليب ديميليس وسكنها بصورة دائمة لكنه تنازل عن الحكم لابنته التي تزوجت أرناط وهو الأمير ريونالددي شتيلون وجعل هذا الأخير من قلعة الكرك قاعدة لانطلاق الحملات الحربية ضد المسلمين وخصوصا القوافل التجارية بين مصر والشام وقوافل الحجاج.

كانت مسرحا للعديد من الأحداث التاريخية المثيرة كما يروي المؤرخون، كما كانت عرضة لزلازل متكررة ففي العام 1211 ضربها زلزال عنيف فسقط العديد من أبراجها ثم قام الملك عيسى بن العادل بإعادة بناء ما تهدم، وجددت أجزاؤها في عهد الملك ناصر

داود الـذي حكـم مـن العـام 1226 الى العـام 1249 ميلاديـة الـذي رممهـا وأضـاف إليهـا القاعـة الناصريـة ودار السـلطنة وهـو مقـر الحكومـة ومستشـفى لعـلاج المـرضى. ثـم أعـاد الملـك المغيـث عمـر إعـمار القلعـة بعـد زلـزال آخـر ضربهـا في العـام 1461 ميلاديـة أدى الى انهيـار العديـد مـن مبانيهـا. كـما أنهـا لم تنعـم بالاسـتقرار والسـلام لفـترة طويلـة فبعـد الحـروب التـي شـهدتها بـين المماليـك والصليبيـين كتـب لهـا أن تشـهد الصراعـات التـي نشـأت بـين الأيوبيـين والمماليـك خـلال فـترة حكـم المماليـك لمـصر إذ حـاول الأيوبيـون اسـتعادة ملكهـم هنـاك. ونتيجـة لذلـك شـن الظاهـر بيـبرس حملـة عـلى القلعـة في العـام 1262 ميلاديـة ودخلهـا ليقـضي عـلى الملـك المغيـث وينهـي حكـم الأيوبيـين في مدينـة الكـرك. وتـوالى عـلى القلعـة بعـد بيـبرس سـلاطين المماليـك؛ قـلاوون والأشرف خليـل والنـاصر محمـد بـن قـلاوون ورممـوا الكثـير مـن أجزائهـا كلـما هدمتهـا الـزلازل. وفي عهـد الحكـم العثـماني خضعـت الكـرك لحكـم ناصيـف باشـا لكنـه حـاول الاسـتقلال عـن الدولـة العثمانيـة فقـام والي دمشـق باحتـلال الكـرك وأعدمـه. وضرب إبراهيـم باشـا القلعـة بالقنابـل في العـام 1839 مـما أدى الى نسـف العديـد مـن الأجـزاء فيهـا.

وقـد وصـف القلعـة سـيد الرحالـة ابـن بطوطـة (محمـد بـن عبـد اللـه 1303-1377م) في كتابـه تحفـة النظـار في غرائـب الأمصـار وعجائـب الأسـفار، فقـال:

«ثـم يرحلـون إلى حصـن الكـرك. وهـو أعجـب الحصـون وأمنعهـا وأشـهرها. ويسـمى بحصـن الغـراب. والـوادي يطيـف بـه مـن جميـع جهاتـه ولـه بـاب واحـد قـد نحـت المدخـل إليـه في الحجـر الصلـد. ومدخـل دهليـزه كذلـك. وبهـذا الحصـن يتحصـن الملـوك، وإليـه يلجـأون في النوائـب ولـه لجـأ الملـك النـاصر. لأنـه ولي الملـك وهـو صغـير السـن. فاسـتولى عـلى التدبـير مملوكـه سـلار النائـب عنـه. فأظهـر الملـك النـاصر أنـه يريـد الحـج.

ووافقه الأمراء على ذلك. فتوجه إلى الحج. فلما وصل إلى عقبة أيلة، لجأ إلى الحصن وأقام فيه أيامًا إلى أن قصده أمراء الشام. واجتمعت عليه المماليك وكان قد ولي الملك في تلك المدة بيبرس الجاشنكير وهو أمير الطعام ويسمى بالملك المظفر. وهو الذي بنى الخانقاه البيبرسية بمقربة من خانقاه سعيد السعداء التي بناها صلاح الدين الأيوبي. فقصده الملك الناصر بالعساكر. ففر بيبرس إلى الصحراء. فتبعه العساكر فقبض عليه، فأتى به إلى الملك الناصر فأمر بقتله، فقتل. وقبض على سلار وحبس في جب حتى مات جوعًا. ويقال أنه أكل جيفة من الجوع. «نعوذ بالله من ذلك.» والقلعة ما زالت غامضة من الداخل ففيها سراديب لم تكتشف إلى الآن».

وتقع القلعة في شكلها الحالي في رأس تلة، مبنية من الحجارة الضخمة، فما أعظم الأجسام التي رفعتها، متقنة البناء والتشييد بأبعاد هندسية متناسقة، كثيرة الدهاليز والممرات الأرضية. لما وقفت في مكان مشرف على سفح القلعة بزغت في ناظري حقبة تاريخية مشرقة من تاريخ الأمة، يوم كانت الأمة أمة؛ صلاح الدين بجيشه الجرار يحاصر القلعة، يخطب فيهم بحماسة، يستحثهم على الصبر والصمود، يقسم بأغلظ الأيمان ألا يفارقها حتى يفتحها، ويقتص لدماء المسلمين، ضيوف الرحمان من قاتلهم غيلة أرناط، كان يبدو لي على عجلة من أمره يشغله أمر القدس التي كانت تبدو له على «مرمى حجر»، كما رآها أبو عمار من بعد. ولكنه ظل صابرا بجيشه ثلاثة أسابيع كاملة، والقلعة مستعصية صامدة، ولكن إلى متى؟ فقد كان صلاح الدين وجيشه مصممين على الفتح ولا شيء غير الفتح، فكانت الثمار أن استسلمت القلعة بمن فيها للفاتح العظيم، الذي لم يغتر بنشوة الانتصار فاستحث جيشه على المشي قدما نحو ما هو أعظم، القدس، حيث المسجد الأقصى، وحيث كان مسرى أفضل الأنبياء.

ونحن عائدون من زيارة قلعة الكرك، حكى لي أحد الأساتذة الأردنيين أن القلعة عرفت في الآونة الأخيرة وبالضبط في سنة 2016 حدثا إرهابيا شنيعا، ذلك أن بعض العناصر الإرهابية تسللت إلى القلعة، وصعدت فوق سورها وهاجمت رجال الأمن الذين يتواجد مقرهم بالقرب من القلعة، كانت الخسائر المادية فادحة فاقت عشرة ضحايا منهم رجال أمن وبينهم سائحة أجنبية. والطريف في هذه الحادثة وهو ما لم تذكره الرواية الرسمية، حسب الرواي، أن رجال الأمن تبادلوا النار مع أعضاء الخلية الإرهابية حتى نفد ما معهم من ذخيرة الرصاص الحي، وأوشكوا على الاستسلام، ولولا قدر الله لبسط الإرهابيون نفوذهم بالكامل وقتلوا رجال الأمن عن آخرهم، وربما كانت الخسائر في صفوف المدنيين كارثية أيضا. يقول صاحبي: نعم شاء قدر الله أن يتدخل أحد المواطنين العاديين بسيارته، إذ حمل فيها ما كان معه من سلاح، وجمع أيضا ما كان يملك بعض سكان الكرك من سلاح مثله، وغامر بنفسه مغامرة الأبطال فدنا بسيارته وسلم السلاح لرجال الأمن، وبفضل هذا السلاح تمكن الأمن من استعادة السيطرة وكسب المعركة، فقتل أربعة من الإرهابيين وفر الآخرون، وهنا علق الراوي: الغريب في الأمر هو كيف استطاع هؤلاء الفرار وأشار إلى المنحدر الذي تقع عليه القلعة من الجهة الأخرى، أتراهم نزلوا عبر هذا السفح الخطير، ثم تابع معبرا عن خوفه: لا شك أنهم درسوا جغرافيا القلعة جيدا. الطريف يا صديقي هو أن الأمن بعد ذلك استدعى الرجل الذي قدم المساعدة للشرطة وكان ينوي محاكمته بتهمة حيازة أسلحة بدون ترخيص. ضحكت كثيرا، وقلت في نفسي هذا حال الأمن في جميع البلاد العربية، يفاجئك أحيانا بأفعال لا تجد لها تبريرا، يذكر أحد الإسلاميين أنه عندما كان يتعرض للاستنطاق الأمني مع أحد كبار العناصر الأمنية، ذكر في سياق حديثه: «وكما يقول شيخنا ابن تيمية»، يقول: وقبل أن

أكمل عبارة الترحم على الشيخ بادرني المستنطق متحفزا كمن عثر على ضالة منشودة: ما آخر مرة التقيت فيها شيخك ابن تيمية هذا؟ وأين التقيته؟ المسكين لا يدري أن ابن تيمية صار رميما تحت التراب منذ قرون خلت.

22- القدس معشوقة تتربع على عرش القلب

القدس القريبة منا الآن جغرافيا البعيدة الوصول واقعا، أي إحساس هذا الذي يتملكني وأنا قريب من معشوقتي ومحبوبتي لكن وصولي إليها مستحيلا، أي إحساس ينتابني وواقعي يعتذر لأبي عمار ويقول له «لا زلت أراه بعيدا، لم أره قريبا كما رأيته»؟ كانت باحثة جزائرية تلح على زيارة منطقة البحر الميت الفاصلة بين الأردن وفلسطين التاريخ، فلسطين الضفة الغربية، هناك حيث يمكن لك أن تكون أمام فلسطين على مرمى حجر، مسافة لا تزيد عن 17 كيلومترا عرضا، كنا جميعا نشاطرها هذه الرغبة، رغبة شم رائحة فلسطين، لتكتحل عيوننا بالنظر إليها ولو عن بعد، فليس من رأى كمن سمع، لكن إخوتنا الأردنيين كانوا يداروننا، ويعاملوننا بحسن التخلص في كل مرة يطرح فيها الموضوع، علمت فيما بعد من أحد الإخوة الأردنيين أن المنطقة تصنف أمنية وزيارتها تحتاج إلى تصريح، بل إنني علمت أنها ممنوعة على الفلسطينيين من جهتهم بدعوى الأمن. أي أمن يتحدث عنه هؤلاء العصابة المحتلون الغاصبون الغاشمون الخائفون حتى من ظلالهم، الجبناء الذين يحتمون خلف أسلحتهم، الزارعون الرعب في كل شيء، الذين لا تستثني بنادقهم طفلا بريئا ولا شيخا كبيرا، ولا امرأة مغلوبة.

أخرجني صوت الدكتور العموش من الحضرة التي كنت في غمرتها، والسكرة التي تغشتني في محراب الحب العذري، ينادي بالرحيل، وليته ما فعل. توجهنا إلى الجامعة، وقبل دخول قاعة المؤتمرات استضافنا الإخوة في إذاعة جامعة الطفيلة، رحبوا بنا ونقلونا على المباشر، قبل الشروع في المحادثة كانت الأغنية على موعد، كأنهم كانوا على علم بأحوالي التي عشتها قبيل قليل، الصوت الشجي واللحن الرقيق

يخترقـان شـغاف القلـب قبـل السـمع:

بلادُ العُربِ أوطاني
منَ الشّـامِ لبغدانِ
ومن نجدٍ إلى يَمَـنٍ
إلى مِصرَ فتطوانِ
فـلا حـدٌّ يباعدُنا
ولا ديـنٌ يفـرّقنا

كـدت أنتفـض في وجوههـم: أوقفـوا هـذا الهـراء، كفـى من هـذا الكذب، كفـوا عـن العيـش في أحـلام أجهضـت ولا يبـدو في الأفـق أي مـؤشر عـلى تحققهـا. ولكـن اللحـن كان جذابـا أكـثر، والمعـاني اسـتولت عـلي وملكـت عـلي مهجتـي، فنظـرت إلى نفـسي وأنـا بـين إخـوة مـن فلسـطين، والأردن، والعـراق، وردّدت في نفـسي راضيـا: فـلا حـدٌّ يباعدُنـا = ولا ديـنٌ يفـرّقنا.

وعندمـا طلـب منـي الأخ الصحفـي المقتـدر خالـد عطيـة أن أتحـدث عـن تجربتـي في الأردن، لسـت أدري كيـف بـدأت حديثـي عـن الأردن بالحديـث عـن القـدس، انتهـزت الفرصـة، وعـبرت فيهـا عـن شـوقي لهـذه المدينـة السـاكنة في سـويداء القلـب.

سـألني الدكتـور خالـد عـن موضـوع البحـث الـذي جئـت أقدمـه، فأخبرتـه أنـه يتحـدث عـن علاقـة النـص بمنهـج التحليـل النفـسي لـلأدب في تجربـة الدكتـور فتحـي بـن سـلامة والدكتـور حسـن المـودن، وبعـد أن علـم أنهـما معـا مـن المغـرب العـربي؛ تونـس والمغـرب، لامنـي عـلى اقتصـاري عـلى هـذه المنطقـة وتمنـى أن أعمـم البحـث ليشـمل القطـر العـربي عامـة. كان لومـه سـهما واخـزا، أحسسـت أننـي أيضـا أسـاهم في تعميـق الهـوة والتفرقـة بـين العـرب، لكننـي وجـدت عـزائي في أن الظـروف الشـكلية والموضوعيـة للمؤتمـر هـي التـي فرضـت عـلي هـذا الاجتـزاء.

حدثت الدكتور خالد عن الخطوط العريضة للبحث:

فهـو ينطلـق مـن افـتراض مفـاده أن منهـج التحليـل النفـسي لـلأدب، بخـلاف مناهـج أخـرى، شـهد تطـورا وتجديـدا أثبتـا جـدواه وراهنيتـه في الدراسـات الأدبيـة الحديثـة، ذلـك أنـه عـرف قلبـا رأسـا عـلى عقـب، فتحـدث رواده عـن تطبيـق النـص عـلى المنهـج بـدل تطبيـق المنهـج عـلى النـص، ولا سـيما مـع لاكان وبيـير بيـار.

وقـد اخـترت الاشـتغال عـلى العلمـين المغاربيـين المذكوريـن لمـا لمسـت في اجتهاداتهـما عربيـا ومسـاهمتهما في تطويـر هـذا المنهـج، فأمـا بـن سـلامة فقـد اسـتغل دراسـته لألـف ليلـة وليلـة ليغنـي التحليـل النفـسي بمجموعـة مـن المفاهيـم مـن قبيـل: الثالـث، والشـطب، والقتـل المضـاد بالحـكي، واسـتحالة الرهـق. وأمـا حسـن المـود فـدرس قصـة النبـي يوسـف عليـه السـلام في القـرآن، وصـاغ منهـا عقـدة جديـدة مخالفـة تمامـا لعقـدة أوديب التـي وقـف عندهـا التحليـل النفـسي، وهـذه العقـدة هـي عقـدة الأخـوة، كـما جسـدها الـصراع بـين الإخـوة والنبـي يوسـف، ذلـك أنهـم سـعوا إلى تجريـده مـن حضوتـه عنـد أبيـه وحاولـوا احتـلال مكانـه.

اخـترت هذيـن الاثنـين لأنـوه بالجهـود العربيـة التـي تسـعى إلى التجديد والابتـكار، ولا تقـف منبهـرة أمـام مـا وصـل إليـه الغـرب مكتفيـة بالإشـادة بـه وتطبيقـه حرفيـا.

23- حكم عام لا يليق بالبحث العلمي

قضينا في الجامعة صباحا آخر مشرقا بالعلم والمناقشة. أثارتني مداخلة لأخت من الجزائر عن الأمازيغ، كانت متعصبة لدرجة كبيرة، دفعها التعصب إلى أن تطلق حكما على عواهنه، قالت بالحرف: الأمازيغ يوجدون في الجزائر فقط، وبالضبط في منطقة القبايل، ونسيت أنهم جزء من سكان المغرب وتونس وليبيا وموريتانيا وشمال مالي وشمال النيجر وجزء صغير من غرب مصر. خذ مثلا المغرب تجدهم يشكلون حوالي 26,7% من إجمالي عدد سكان المغرب بحسب إحصاءيات المندوبية السامية للتخطيط لسنة 2014، والتي اعتمدت إحصاء الناطقين باللغة الأمازيغية فقط دون إحصاء عرقي للساكنة، ويتوزع الناطقون باللغة الأمازيغية في المغرب على ثلاث مناطق جغرافية واسعة وإذا بحثت في الكتب أو في شبكة الأنترنت وجدت أن هذه المناطق هي:

- منطقة الشمال والشرق: وتمتد على مساحة حوالي 50.000 كيلومتر مربع ويسكنها الناطقون بالريفية والزناتية. ويوجد الناطقون بالريفية والزناتية أيضا ببعض المناطق في الأطلس المتوسط وإقليم فكيك، بالإضافة إلى تواجدهم بمدن الشمال (طنجة، تطوان) ومدن الشرق.

- منطقة الأطلس المتوسط: (إفران وخنيفرة وتافيلالت وإموزار) هي منطقة واسعة متنوعة جغرافيا ومناخيا لا تطل على البحر، وتبلغ مساحتها ما لا يقل عن 50.000 كيلومتر مربع. وتتميز بقساوة في المناخ تتراوح ما بين البرد القارس في أعالي جبال أطلس وجفاف الصحراء الشرقية.

- مناطق سهل سوس: وهي مناطق واسعة متنوعة يغلب عليها

المناخ الدافيء قرب البحر، والحار في الداخل، والبارد في جبال الأطلس. يبلغ مجموع مساحة هذه المناطق ما لا يقل عن 60.000 كيلومتر مربع. وتنتشر في هذه المناطق (تاشلحيت / تاسوسيت).

عقبت عليها مشاركة من المغرب فعاتبتها وقدمت لها مجموعة من المعطيات عن واقع الأمازيغ بالمغرب، والحقيقة أنهم أناس يتمسكون بتقاليدهم، وتراثهم أيما تمسك، لا يفرطون في زيهم التقليدي نساء ورجالا، ويشتهرون بصناعة زيت شجرة الأركان، وهي من الأشجار النادرة.

يذكر أن شجرة أركان من النباتات الطبيعية التي تنمو في الجنوب المغربي خاصة في سوس ما بين الصويرة وتافراوت فقط، وبكمية قليلة جدا في جنوب فلسطين المحتلة بصحراء النقب ووادي عربة وفي المكسيك وكاليفورنيا، وقد عمرت هذه الشجرة ملايين السنين، وتتوفر على قدرة هائلة لمقاومة الجفاف ومحاربة ظاهرة التصحر، وتنتشر على مساحة آلاف الهكتارات في عدد من المناطق الجنوبية المغربية من ضمنها الصويرة وأكادير وتارودانت وتيزنيت ومنطقة أيت بعمران، وسيدي افني وشيشاوة. ويستعمل زيت أركان الذي يستخلص بطريقة خاصة في أغراض التغذية والتجميل وبعض العلاجات الطبية، كما تستغل فضلاته كعلف مقو للماشية. وأحسن طريقة لاستخلاص زيت الأركان هي الطريقة التقليدية التي تستعمل فيها الرحى، تتكون الرحى من قطعتين حجريتين بملمس خشن، السفلى أوسع من العليا وذات شكل مقعر ينتهي برأس مستدير يسمح بنزول الزيت، أما العليا فتثبت فيها عصا تستعمل مدورة، وغالبا ما تتم هذه العملية في شكل جماعي من قبل النساء فقط دون الرجال، وهن يرددن أهازيج باللغة الأمازيغية، ولم تسلم هذه الحرفة من غزو المكننة، إذ فقد كثير من النساء مصدر رزق كن يتعيشن منه، وفقدت الزيت جودتها أيضا.

يتطلب الإعداد المرور بعدة مراحل معقدة وصعبة تتطلب صبرا وجهدا، تبدأ بعملية الجني التي تعتبر خطيرة لأن الشجرة شوكية، تم يتم وضع الثمار في مكان معرض للشمس ريثما تجف، بعدها يتم إزالة القشرة الخارجية للثمار، ثم تأتي عملية الدق لاستخلاص النواة، وهي عملية دقيقة تتطلب مهارة عالية، وفي مرحلة أخرى يتم تسخين هذه النوى على نار هادئة، وتأتي أخيرا مرحلة الطحن. والناتج زيتان؛ أحدهما للأكل والثاني للتجميل وهو الأغلى ثمنا. استولت على هذا القطاع مؤخرا شركات تتقنع في زي جمعيات تهربا من الضرائب، تحصد الأخضر واليابس ولاتربح معها النساء العاملات إلا الفتات. وأكثر نساء هذه المناطق يشتغلن في هذه الصناعة بالإضافة إلى الحياكة والنسج.

24- البترا معمار يكذب تخلف الإنسان القديم

في طريق العودة زرنا مدينة البترا، عندما دخلتها تغيرت بعض قناعاتي بخصوص الحضارة الحالية، شككت في أن العالم اليوم في أرقى مستوى للتحضر والتقدم، رأيت بيوتا منقوشة على الصخر بدقة المهندس البارع، وزخرفة الفنان المبدع، بأي أيد تمت هذه النقوش؟ وبأي وسائل ومواد؟ وجدت أن كثيرا من نقوش تزيين البيوت والعمارات المصنوعة اليوم بالإسمنت والجبس وغيرها من المواد هي نقول عن تلك النقوش وتقليد لها، فأي الحضارتين أعظم، المبدعة أم المقلدة؟ أدركت أننا فقط نحاول استعادة حضارة مفقودة، هذا إن لم نكن نرجع القهقرى، فكم هدمنا وكم خربنا أكثر مما هدم وخرب عدونا، رنّت في أذني أبيات عيسى الناعوري:

أخي مأساتنا ليست== سوى من صنع أيدينا
فمن أطماعنا العميا==ء سودنا لياليـنا
ومن أحقادنا الصما==ء هدمنا تآخـينا

وأنت في مدخل مدينة البترا تجد بائعي التذكارات والملابس المحلية الصنع، توقف أحد الأصدقاء عند بائع شاب يساومه عن ثمن كؤوس فضية صغيرة جميلة المنظر، بينما كنت أستشير أحد الطلبة المرافقين لنا من الأردن حول إمكانية شراء بعض الهدايا، قال لي: أصدقك القول، الأثمنة هنا مبالغ فيها بشكل كبير، اصبر حتى نعود إلى عمان وسآخذكم إلى أحد الأسواق الشعبية، هناك ستجدون بغيتكم بأثمنة مناسبة جدا.

اقتنعت باقتراحه، وهممت بإخبار صديقي الذي كان لا يزال في حديث مع البائع. صدقوني إذا قلت لكم بأنني بمجرد أن ناديت عليه، وقبل أن أنبس له بأي كلمة، انفجر في وجهي البائع الشاب بكلام لم أفهم منه شيئا، غير قسمه بأغلظ الأيمان على ألا يبعينا شيئا. حاولت

جاهـدا أن أهدئـه وأشرح لـه، لكنـه كان يـزداد غضبـا، وأعطـاه صديقـي السـومة التـي طلـب منـه، لكنـه رفضهـا، وهـم بطردنـا مـن أمـام متجـره. فاجـأني سـلوك هـذا الشـباب حتـى شـككت في أنـه مـن الأردن، فأهـل الأردن ألفيناهـم طيبـين هادئـين وديعـين. عـدت أدراجـي وقـد حـز ذلـك في نفـسي كثـيرا، كنـت أتمنـى أن يهـدأ وفي نيتـي أن أعانقـه وأضمـه إلى صـدري وأعطيـه مـا طلـب مـن سـومة وزيـادة. هـي سـنة اللـه في خلقـه، خلقهـم مختلفـين خلقـا وأخلاقـا.

بعـد زيـارة البـترا كان الليـل قـد أرخـى سـدوله، وفي طريـق الرجـوع إلى الفنـدق مـال بنـا البـاص جهـة إحـدى التـلال، إذ تـراءت لنـا أنـوار ونـيران موقـدة في الأعـواد، هنـاك حيـث أعـد لنـا الإخـوة الأردنيـين مفاجـأة رائعـة، عشـاء رومانسـيا في الطبيعـة، في الفضـاء الممتـد تحـت سـقف السـماء المزخـرف بالنجـوم في ليلـة اشـتد أديمهـا، عشـاء ذكـرني بالعـرب القدامـى وبالعيـش في الصحـاري ونحـر المطايـا، إعرابـا عـن الجـود والكـرم الـذي هـو مـن شـيمهم، وبعـد أن شـبع البطـن أمـر «الـرأس» بالغنـاء، فطفـق الأصدقـاء يغنـون الأغـاني الأردنيـة ويرقصـون رقصاتهـم المشـهورة، ووديـان الهضـاب ترجّـع الصـدى في جـو سـاحر ومبهـر. وبينـما كان الجميـع في حبورهـم انسـللت بعيـدا قليـلا صليـت المغـرب والعشـاء جمعـا في خلـوة صوفيـة خاشـعة، تذكـرت تحنّـت المصطفـى صـلى اللـه عليـه وسـلم في غـار حـيراء، الطبيعـة هنـا برهـان دال عـلى عظمـة اللـه، ثـم غبـت أتأمـل ملكـوت الكـون، أراقـب النجـوم، أتذكـر سـهر المحبـين وبكاءهـم، تذكـرت المجنـون هائمـا في الصحـراء يشـكو ألم الوجـد والصبابـة وهـو يـردد:

أَنا الناحِلُ المَهمومُ وَالقائِمُ الَّذي== أُراعي الثُرَيّا وَالخَلِيّونَ نُوَّمُ

فلسـطين، أيتهـا الحبيبـة القريبـة مـن القلـب، أيهـا الحلـم المؤجـل، أيهـا القريـب البعيـد، يـا جميلـة تهفـو إليهـا كل القلـوب، وتصبـوا إليها الأشـواق، أيتهـا المعشـوقة التـي لا يتحـرج الخطبـاء مـن التغـزل بهـا وهـم عـلى

المنابـر، والزهـاد وهـم في الخلـوات والمحاريـب، كيـف الوصـول إليـك؟ كيـف السـبيل لتيمّـم ترابـك الـزكي، مـاذا أقـول لأهـلي عندمـا أعـود وأخبرهـم أننـي وقفـت منـك عـلى مرمـى حجـر، لكنـي لم أرك، ولم أشـتم رائحتـك، وبـدني لم يتيمـم ترابـك، ونظـري لم يتملاك، هممـت بـأن أصيـح بأعـلى صـوتي حتـى تـردد معـي هـذه الوهـاد والنجـاد، حتـى أسـمع كلـماتي جميـع الأحيـاء، حتـى مـن بهـم صمـم، فأنـا المحـب، أنـا العاشـق لأرض الأنبيـاء.

وَكَيفَ يُطيقُ الصَبُّ كِتمانَ سِرِّهِ == وَهَل يَكتُمُ الوَجدَ اِمرُؤٌ وَهوَ مُغرَمُ

25- البيضاء وما أدراك ما البيضاء

في فجر اليوم الموالي، ودعت صديقي الجزائري وتعانقنا عناقا أخويا، وتعاهدنا على الحفاظ على حبل الوصال موصولا، وعدت مع رفيقيّ إلى مطار الملكة علياء على الساعة الرابعة صباحا، كانت مدينة عمان لا تزال نائمة نومها الطفولي الهادئ.

هذه المرة لم تكن إجراءات المطار ولا صعود الطائرة لتثيرني، فالشيء عندما يتكرر يفقد بعض إثارته. عدنا إلى البيضاء، عدت وما تيقنت أسافرت بروحي أم بجسدي أم بهما معا؟ عدت وما تيقنت أن روحي عادت معي، أم تراها لا تزال تقف هناك على مرمى حجر، على حافة الحلم بالدخول إلى فلسطين؟

لم يوقظني من حلمي سوى هرج المحطة الطرقية أولاد زيان بالبيضاء، هذا الفضاء الملتهب يشعرك بالقلق، يتلقاك عشرات من سماسرة التذاكر يسألونك عن وجهتك، وإذا لم تجب، تلقيت نصيبك من العتاب الذي قد يصل حد السب والشتم، إذا سكتّ مشكلة وإذ عبرت عن وجهتك فتلك مشكلة مضاعفة، يلازمك مثل ظلك يسلمك تذكرة رغما عنك، يأتي بك إلى الحافلة فيسلمك لسمسار آخر بعد أن يكون قد انتشل منك بعض الدريهمات، بعض الأشكال البشرية عليها سمات الإجرام بادية، نظرات شزراء، ألسنة حداد، وأجساد مخططة بآثار الجروح، وأخرى موشومة بأشكال غريبة تبعث الهلع في نفوس الناظرين. لا تتنفس الصعداء إلا بعد أن تأخذ مقعدك وتطمئن أنك في الحافلة «الصح» القاصدة لوجهتك فعلا، همّ يسيطر عليك لكثرة ما تسمع من حكايات عن نساء ورجال خُدِعوا، كانت وجهتم الشمال

فوجـدوا أنفسـهم في حافلـة متجهـة إلى الجنـوب أو العكـس. في هـذه البقعـة كل أشـكال التحايـل والمكـر والتمثيـل متاحـة.

الممـر الفاصـل بـين المقاعـد مكتـظ بالباعـة المتجولـين يعرضـون بضائعهم المتنوعـة؛ ميـاه، ومشروبـات غازيـة، وأكلات خفيفـة، ومـواد إلكترونيـة، وبيسـكويت، كتـب دينيـة، ومسـك وسـبحات، وأشرطـة... ولا يكفـون عـن الخصـام وتبـادل الشـتائم. بجـواري امـرأة تسـاوم بائعـا بخصـوص شـاحن هاتـف، لم تكـن نيتهـا أن تشـتري ولكـن أن تعـرف ثمـن السـومة حتـى تقارنه بالثمـن الـذي اشـترت بـه شـاحنها، لكنهـا وقعـت في شـباك البائـع، يقلـب شـاحنها يعيبـه، وبالمقابـل يعـدد لهـا مزايـا شـاحنه الـذي يبيعـه، تصارحـه بنيتهـا لعلهـا تنجـو منـه، لكنـه لا يستسـلم، يقـترح عليهـا مقايضـة مغريـة: تعطينـي شـاحنك وتزيديننـي مبلغـا مـن المـال، وأعطيـك هـذا الشـاحن الجيـد. يكسـب تعاطـف المـرأة؛ تقسـم لـه بأنهـا لـو كانـت تمتلـك المـال لاشـترت منـه، يزيـد هجومـه، تنتهـي المحادثـة بمحاولـة غزليـة، تتدخـل الأم فيرتـدع ويتركهـا.

امـرأة متقدمـة في السـن تصعـد الحافلـة، تختـار مقعـدا كـما يحلـو لهـا وتجلـس، تحيـط بهـا حاجاتهـا مـن كل جانـب، يصعـد شـاب يضـع حقيبـة عـلى ظهـره، وسـماعات موسـيقية في أذنيـه، يحـدق في أرقـام المقاعـد تباعـا، ينتهـي بـه المطـاف بالوقـوف أمـام المـرأة:

- سيدتي هذا مقعدي.

تقابلـه بالتجاهـل. فيتـودد إليهـا: يـا حاجـة، قلـت لـك هـذا مقعـدي، لأن الرقـم الـذي عنـدي في التذكـرة هـو رقـم المقعـد الـذي تجلسـين فيـه.

تنفجـر في وجهـه بالسـباب والشـتم: لا تظـن أنـك بهيئتـك هـذه سـتخيفني.

يكظـم غيظـه يسـتعين بالمسـئول عـن التذاكـر، يخاطبهـا متـوددا هـو أيضـا: يـا أمـاه هـذا مقعـد هـذا الشـاب، وأنـت أعطينـي تذكرتـك لأحـدد

لـك مكانـك بالضبـط، فالأمـور في هـذه الحافلـة منظمـة ويجـب احترامهـا.

تزيـد مـن هجومهـا وهـي تولـول: يـا لسـوء حظـي كيـف انتهـت بي الأمـور، أن أصبـح أضحوكـة أمـام هـؤلاء الصغـار، اسـمعوني جيـدا، قبـل أن تولـدوا أنتـم كنـت أنـا أحـرث مدينـة الـدار البيضـاء ذهابـا وجيئـة، لقـد خـبرت جميـع أنـواع البـشر فيهـا، والمخادعـون مـن أمثالكـم لا يخفـون عـلي، تتذرعـون بالأرقـام والنظـام، متـى رأينـا نظامـا في هـذه البـلاد، النظـام في الحافلـة فقـط؟ فلتذهبـوا أنتـم وأرقامكـم إلى الجحيـم. أمـا أنـا فوالله مـا أنـا بمتزحزحـة مـن هنـا.

يغيّر المسؤول من لهجته: لا تضطريني لاستدعاء الشرطة.

تقهقـه عاليـا: الشرطـة! أيـن هـم ادعهـم حـالا، أتعتقـد أننـي تخيفنـي الشرطـة، أيـن هـم ليخلصونـا مـن هـذه الفـوضى التـي تعـم هـذه المحطـة. كلهـم أمثالكـم لصـوص أبنـاء لصـوص، أعـرف كثـيرا منهـم مـن المقربـين، عـاش محمـد السـادس.

كان جميـع الـركاب يتطلعـون إلى هـذه المـرأة التـي تجـرؤ عـلى سـب الشرطـة علانيـة دون خـوف لتقصيرهـم في أداء واجبهـم الأمنـي، وفي أعينهـم علامـات الإكبـار والتقديـر، وكأنهـا عـبرت بألسـنتهم ونيابـة عنهـم. يرفـع المسـؤول يديـه مستسـلما، يتبعـه الشـاب يبحـث عـن مقعـد في الخلـف، تسـتوي في مقعدهـا معتـدة بنفسـها، وتواصـل سـبابها وشـتائمها. ومـا إن تهـدأ هـذه المـرأة حتـى ينشـب خـلاف آخـر بـين سـائق الحافلـة وبعـض الـركاب بخصـوص سـومة التذاكـر، هكـذا حـال هـذه المحطـة الطرقيـة، خصـام وهـراش، وعـراك بـدون توقـف.

26- عدت وما عدت أنا الذي كنت

ها أنا عدت بجسدي المثقل بالعياء، وقلبي المثخن بالجراح، عدت إلى مكتبي أجلس إلى حاسوبي في حالة بين اليقظة والنوم، بين الحضور والغيبة، بين الوعي والإغماء، أسابق الزمن حتى لا تخونني ذاكرتي المخرومة، أرقن الحروف على الشاشة فتتحول إلى إشراقات وأنوار، إلى آلام وأحزان. انتهت الرحلة وما انتهى الألم، وما شفي الجرح، ولكن خفف منه قليلا حبر القلم، والشيء الذي بات مؤكدا أنني أنا الذي عدت لست أنا الذي كنت، لكن من أكون أنا الآن فهذا ما لم أقدر على تحديده بالضبط.

مرة أخيرة أعتذر لك أيها القارئ الكريم الذي أحترمه وأقدره، أعتذر لك على هذه الطريقة المبعثرة التي نثرت بها هذه الأشياء، فمنها ما وقع في حينه، ومنها ما خطر لي ساعة تدوينه، كتبتها والأحشاء تحترق، والروح منقبضة، والقلب قلق، فيها، كما رأيت، كم عبرة وزفرة، وخفقة وحسرة، على واقع أمة، كانت يوما ما في القمة، وهي اليوم أهون أمة. إن شئت فصدق ما قرأت، وإن شئت فقل هي أضغاث أو سمها ما شئت، أما أنا فأقول لك هي إشراقات وبوارق بعضها من بنات الفكر، وقراءة لأكثر من أثر، وبعضها من وحي السفر، سفر الروح والجسد معا، سفر بقليل من أفراح وبكثير من جراح.

بعد أيام مضت على عودتي تواصلت مع صديقي الفلسطيني، كان كأنه كُشفت له حجب قلبي المثخن بالجراح، قال لي: «تعال حبيبي إلى القدس، تعال! مرحبا بك»، أجبته وعيناي مغرورقتان: «والله إنها لأمنية لا تتقدمها أمنية غير زيارة بيت الله الحرام». فاللهم أخلص لك

ولائي، وحقـق فيـك رجـائي، ويـسر لي سـبل الحـج وزيـارة أرض الأنبيـاء. وإلى ذلـك الحـين أرسـلت حلمـي يسـبقني إلى القـدس ريثـما ألحـق بـه:

يا طائرا خذ روح حلمي واقتبلْ
سلم عليهم واعتذرْ
عن الحدود الغاشمهْ
عن العروبة الضائعه
ضع روح حلمي بينهم
وانقل إليْ أخبارهم حقيقة
فإن أخباري عقيمة وهْي باليهْ
والحمد لله رب العالمين.

بتاريخ 2019/04/21 الساعة 02:30 صباحا.

الفهرس

إهداء..... ٥
١-الرحلة الكبرى ٩
٢- أحقا الأشجار لا تسافر؟ ١١
٣- على أهبة الاستعداد ١٥
٤- من الصويرة إلى الرباط ١٩
٥- الرباط وما أدراك ما الرباط ٢٩
٦- واه على الحياء! ٣٧
٧- مدينة المتناقضات ٣٩
٨- في السفارة الأردنية: التأشيرة أو لا دخول ٤٣
٩- من السطات إلى مطار محمد الخامس..... ٤٧
١٠- استباق شهرزاد أخبار العرب ٥٧
١١- حكاية الربيع العربي ٦٩
١٢- بابا لا تمت! ٨١
١٣- سلام عليك يا عمان ٨٣
١٤- من عمان إلى الطفيلة ٨٧
١٥- في الطريق إلى الكرك ٩١
١٦- أربع رصاصات غادرة ٩٥
١٧- وفي الأردن فقر وتهميش كما عندنا ٩٧
١٨- لص وكلب وطفل يعلمون شيخا عارفا ١٠١
١٩- هنا دارت فصول مؤتة معركة الأبطال ١٠٩
٢٠- السلام عليكم يا شهداء مؤتة ١١٣
٢١- قلعة الكرك ١١٥
٢٢- القدس معشوقة تتربع على عرش القلب ١٢١
٢٣- حكم عام لا يليق بالبحث العلمي ١٢٥
٢٤- البترا معمار يكذب تخلف الإنسان القديم ١٢٩
٢٥- البيضاء وما أدراك ما البيضاء ١٣٣
٢٦- عدت وما عدت أنا الذي كنت ١٣٧